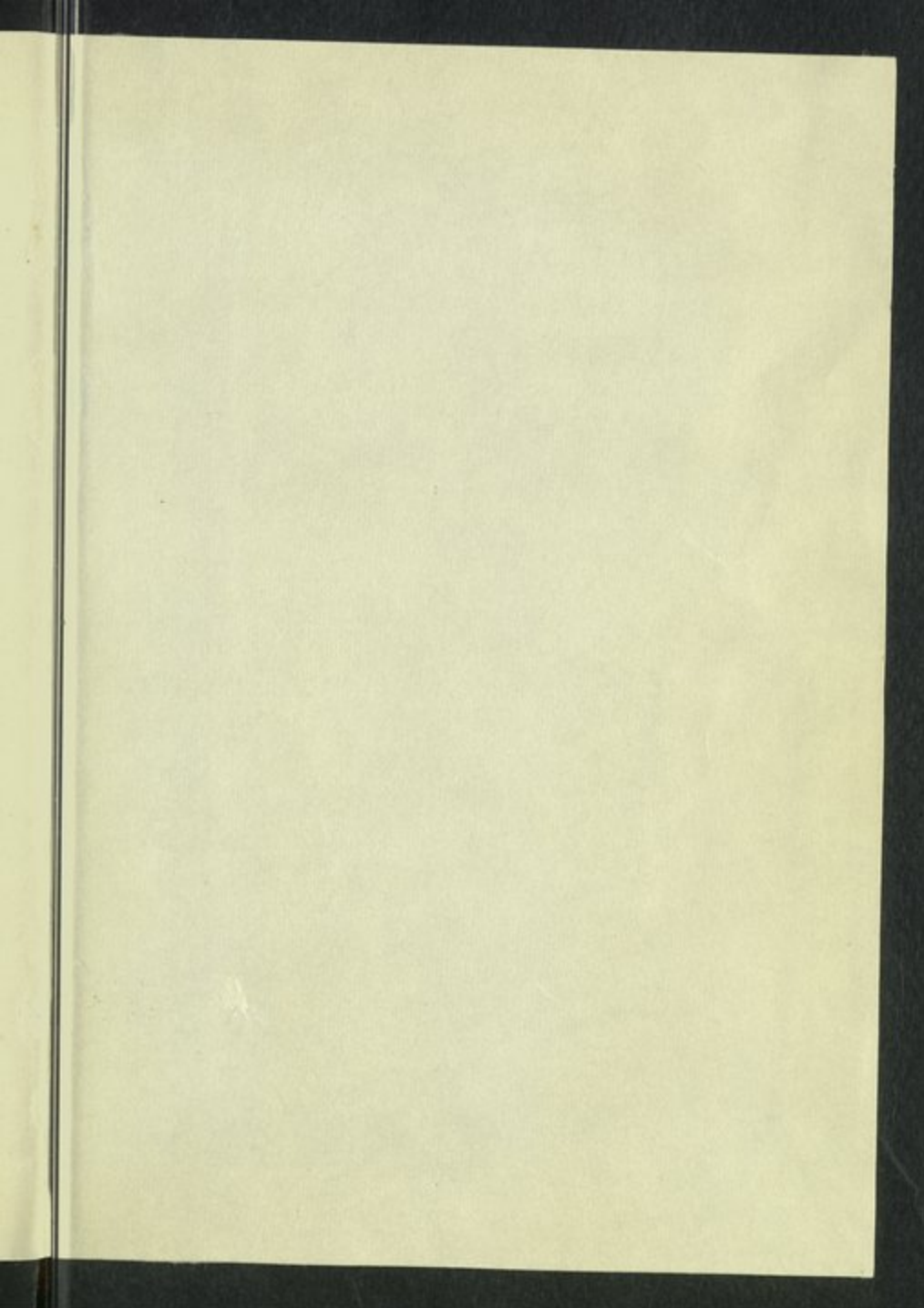
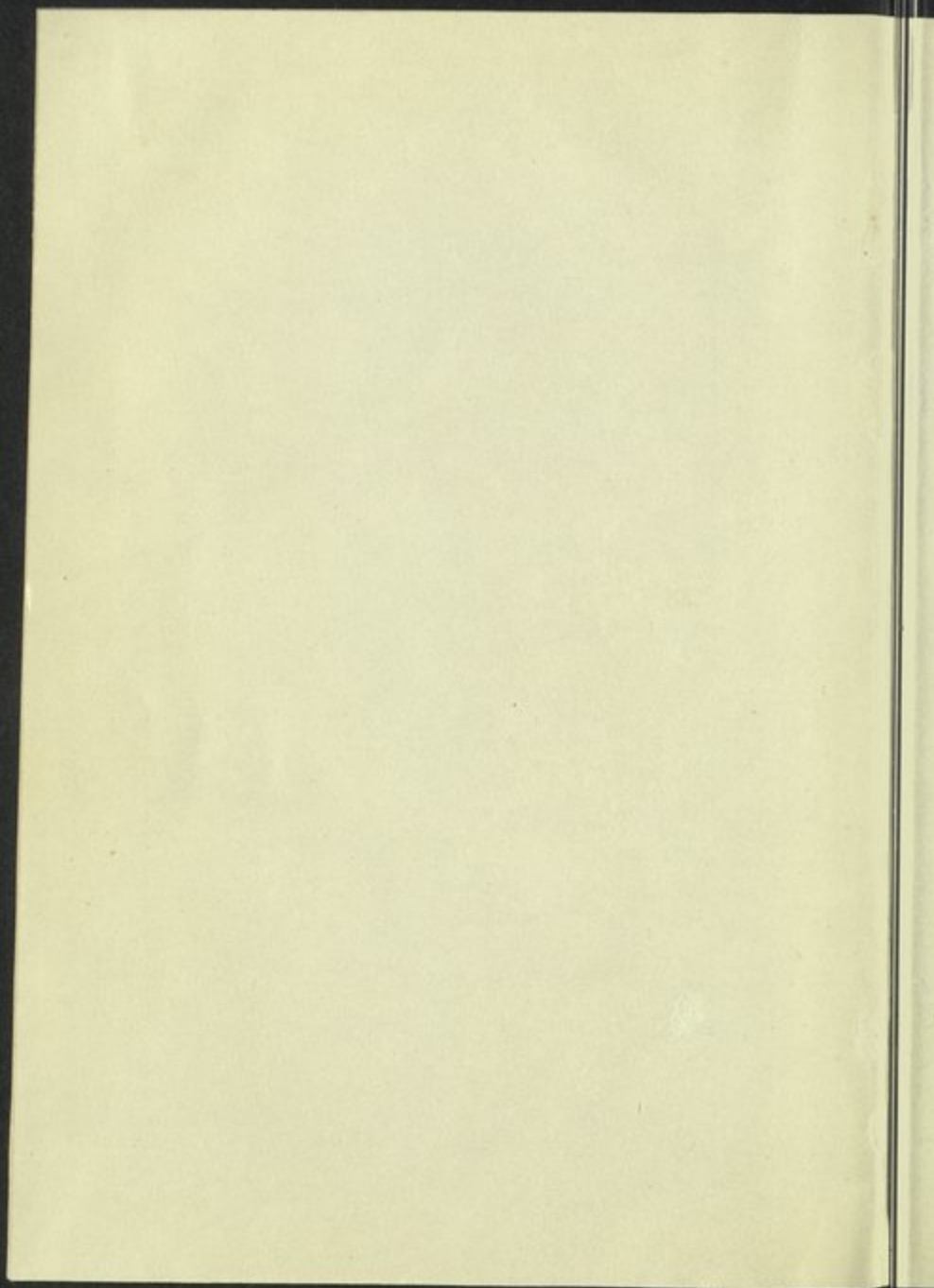


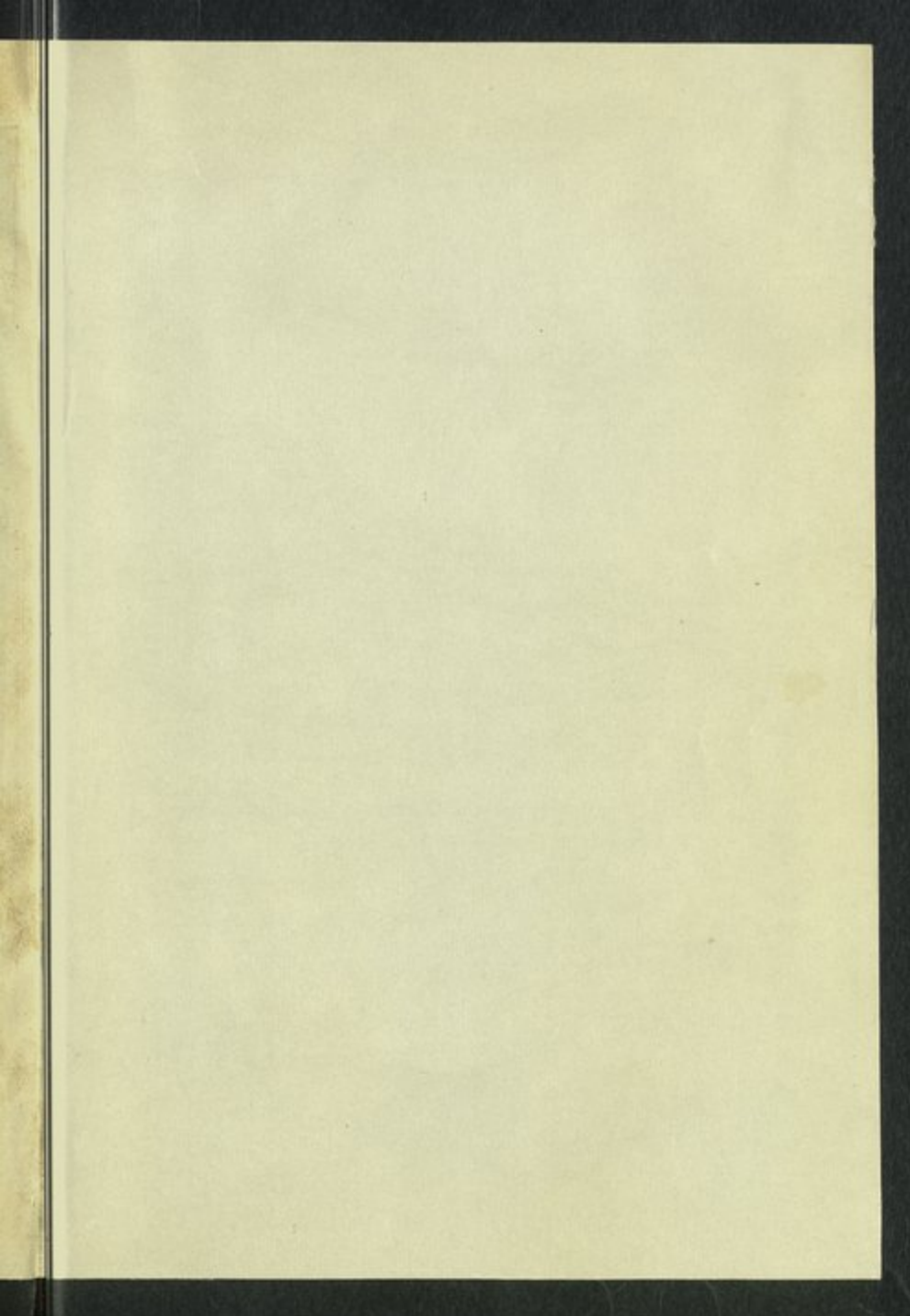
مجلد اول

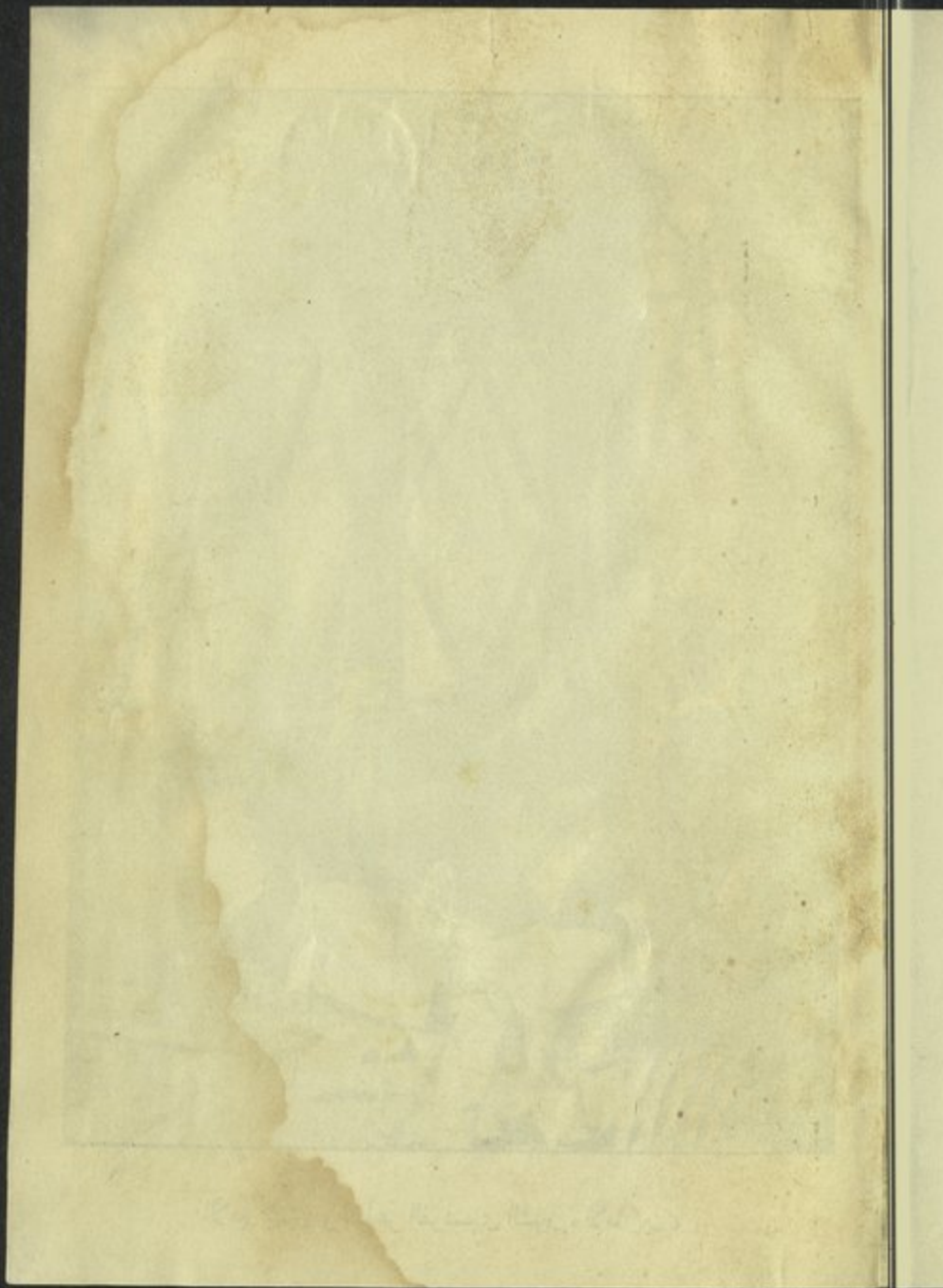
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458











الأمير بشير والشاعر الفرنسي الشهير «لامارتين»

843
B721pA



أميرة بايكية

لدى الذرور

تأليف

پول هنرى بوردو

وتعريب

مبشيل سليم كير

58209

المطبعة العصرية

بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بحصر
للبقون عمرة ٥٩٧٥٦



14 Jan
1875

مقدمة المعرب

أنشأنا منذ عهد ليس ببعيد ، مقالاً في المقتطف (١) ،
أتينا فيه على وصف مصنفات كاتب عظيم عن سورية : هو
السيد هنري بوردو ، عضو المجمع الافرنسي . وهي ما أثر
رائعة لها جانب عظيم من الجمال والقيمة . ولا نخال في شرقنا
من يجهد روايته الخالدة « جميلة تحت ظلال الارز » ، التي
أثارت حين نشرها ، عاصفة من الثناء والمدح ، كما أثارت
ضجيجاً من الانتقاد المر . ولا غرو فلعل وجهه نظر
خاص في هذا الكون . والقصة تحمل في جواهرها مادة كافية
حائثة للقراءح . وبينها المطرىء والصاخب . وخلاصة القول
أن كتب المسيو بوردو ، عن سورية ولبنان ، جذبة بكل
حمد واطراء .

واليوم ها نحن أولاء نقدم الى أبناء العربية ، تعريب

(١) مقالنا : سورية ولبنان في نظر الغرب — المقتطف : يونيو

كتيب قيم ، بقلم كريمة الكاتب المذكور السيدة بول هنرى
بور دو (Paule Henry-Bordeaux) التي اقتفت آثاره الغرب ،
« ومن شابه أباه فما ظلم » . وليس هو أول أثر من يراعتها
الكريمة ، عن المشرق ، بل قد نشرت عدة كتب جليلة عن
سورية ولبنان . وقد وافت هذه الديار صحبة والدها الكريم
في ربيع ١٩٢٢ ، وطافها سماء وأرضاً . وعادت وفي حقيبتها
معلومات وفوائد فريدة حجة . وما لبثت ان اتحفتنا بمجلد
صغير يحوى رحلتها الى تدمر ، عاصمة الزباء ،
Sur la route de Palmyre
ولم تنقض ثلاثة أعوام ، حتى كانت قد أتبعته بمجلدين ضخمين ،
عن المغامرة المخبولة الليدى استرستانهوب Lady Hester
Stanhope en Orient ، أقل ما يقال فيهما انها على جانب
عظيم من الأهمية ، لتاريخ سورية ، في الحقبة الاولى من
القرن المنصرم . وما عتمت أيضاً أن أبرزت عام ١٩٢٨ م
الكتيب الذى نحن بصدده . وقد نرعت في جميع هذه الكتب
نزعة جادة ، كلها اخلاص ونية صادقة . وانك تجد في جميع

ما سطرته ، يد الاعتناء ، والرزانة ، والحكم النزيه . وحسبها
في ذلك مدعاة لحسن الظن ، والحمد الجزيل .

أما موضوع الكتاب فما هو غير خلاصة أريية ، لحياة
أميرة عراقية ، وفدت الى لبنان ، في عهد الامير بشير
الكبير ، وعاشت به ردهاً من الزمن في ظل مولاه القدير .
ولذا دعت الكتاب : « اميرة بابلية لدى الدروز » :

Une Princesse Babylonienne Chez les Druzes.

وليس الكتاب في حد ذاته مقصوداً على هذا . فلدافع
الأصيل الذي حدا بنا الى تعريبه ، غرابة حياة فتاة شرقية ،
نظرت منذ قرن الى فقر بنات جنسها الأدبي ، فعملت على
رقيهن ، وتهذيب حالهن ، ورفع مستواهن العالمي ، بنية
صادقة ، وعزيمة لا تفنى . لكن الدهر الخؤون كان حوولاً
دون الجهود ، فكبا جوادها في هذا الميدان الضيق آتئذ ،
وافترست آمالها الفتية ، وحوش التعصب ، والرجعية ،
والجهالة الكاسرة

ثارت مارية - وهذا اسمها - ذات الفكر الحر ،
والعقل النير ، وأبى عليها ضميرها الحى ، أن تشهد المرأة
تسام الخسف والهوان ، وينظر اليها كسقط المتاع - أو كما
يعتقد فلاحو النصيرية أنها مخلوق دون روح ، أو كما يرى
الكثيرون حتى اليوم ، أنها متعه الرجل يهش لها متى شاء ،
ويغفل عنها متى شاء - وفى عهدنا كان الرجل المسيحي فى
سورية يستنكف مسامرة أخته بل امرأته فى السوق أو فى
الطرق ، اتقاء استنكار القوم . وكان بعضهم يرى من العار
أن يؤاكل زوجه ، أو احدى نساء بيته على مائدة واحدة .
وفى بعض المدن كعزة وعكا مثلاً ، كانت الفتاة تستدرىء
وراء الباب اذا طرقت طارق ، وقد أعوجت فاها ، وحشرت
فيه منديلاً يحشرج صوتها ، فتتقلقل نبراتهما فى مخرجها ،
وذلك ليخال سائلها أنها عجوز شمطاء !! ولست أريد أن أعدد
لك الأمثلة ، التى تكفل باستنزاف الكتاب كله ، وانك لا
تجهل الجليل منها . فاذا كانت هذه هى الحالة فى سورية وعلى
السواحل (اللهم باستثناء لبنان الذى أفلت من كثير من

هذه العادات الشائنة) ، فكيف بها في الداخلية في العراق ،
حيث كان يرتع الجهل ، وينعق بوم التعصب . فهاجت
وماجت هذه ، وماذا تجدى مقاومة التيار الجارف ؟ فلم تلبث
ان أخفقت شر إخفاق :

على المرء أن يسعى بمقدار جهده

وليس عليه أن تم المطالب

هذه ناحية الكتاب الفذة الغريبة ، وهي حلقة مفقودة
من سلسلة تاريخ الشرق النسوى ، جديرة باطلاع الشرقيات
العاملات عليها ، فيبصرن ذلك الشهاب المتناثر ، الذى لمع
في فضاء المشرق برهة ، ثم خبا ضوؤه الى الأبد ! وهن
خليقات بالألا يبخرنها حقها ، بل أن يرمقنها بعين الاجلال
والاعزاز ، اذ هي أولى العاملات ، ولا مرء ، للنهضة
النسائية الشرقية ، وكفى بذلك نخرأ لها .

ولو كان النساء كما ذكرنا

لفضلت النساء على الرجال !

لسنا نود أن نختم هذه المقدمة ، دون اشارة الى منهجنا
في التعريب . وهو الامانة التامة في النقل . فلسنا نقتطع
أسطراً ، أو نحرف فقرةً ، مهما كان الداعي . على أننا قد
نتصرف ، ولا يخفى ذلك عليك ، في بعض العبارات ،
ناهجين مناهج العربية ، في عدم إفراط في المطلب والمعنى .
فلا نغفل شيئاً ، حتى الاوصاف التي يتعشقها الغربيون
(خاصة في مثل هذا ، حيث تطلب المؤلفة الصبغة المحلية)
فندكرها دون تعديل . فبدأنا نطبقه دوماً ، وهو المحافظة
على الاصل جهد المستطاع ، بما حوى من لواذع ، وضم
من جوارح ، خاصة اذا كان على راحة من الحقيقة عظيمة .
وتتحاشى قوانا عن تلك الطرق الشائنة ، التي يتبعها العربون
فيهمون في مزالقتها ، اذ يقتطعون جملاً شتى ، لا توافق في
عرفهم مزاج القراء الشرقيين . ولا سيما ان وجدوا بها قرصاً
ولذعاً للعادات الشرقية . وقد ألمحنا الى ذلك في مقالنا السالف
الذكر . وعليه فلسنا نبالي برضاء الرجعيين ، ولا بغضبهم ،

وسواء لدينا تهليلهم او سخطهم ، تكبيرهم او حقدهم ، ما دمنا
لا نتخذ لهم وزناً ، ولا نعيرهم اهتمامنا .

وعليه فنحن نقدم للقراء هذا الكتاب راجين أن يقع
منهم موقفاً حسناً ، وأن يحملوه على نية الاخلاص ، وحسبنا
هذا جزاء م

مبشيل سليم كبير

مايو سنة ١٩٣١

مأشبة: اطلع على هذا الكتاب الاستاذ الفاضل مصطفى
افندي جواد ، وأمدنا فيه بمعلومات وافية ، جديرة بالذكر
والشكران .

م . س . ك .

اغسطس سنة ١٩٣١



بيروت : ٣٠ مايو ١٩٢٢ م

غداً نفارق سورية ، وذلك بعد شهرين صرفناها فيها ،
تأملنا في خلالها مشاهد جمة ، ورقدنا تحت سموات عدة ،
وطوبنا طرقاً ومضائق كثيرة ، وتنازعتنا مؤثرات عديدة ،
حتى لست أدري أأرجو الوقوف لأحفر الصور الشاردة .
فقد « شبعنا فتنة » حتى أخال عيني ، عاجزين عن تأمل
الوان مستجدة ، وكذلك أذني عن التقاط نغمات جديدة .
لست أدري أي المناظر التي هي تترى أمامي أفضل .
فهناك بلدان عجيبية في قلب البیداء ، وعلى مسائل المياه ،
كدمشق ، وتدمر ، وحلب ، وحماة ، وطرابلس الشهباء ،

ثم وديان لبنان الخضر العذبة ، وقلاع الصليبيين الشاحخة على
ذروات الشعاب لست أدري أيها أختار : أذلك
الاستقبال في تدمر ، والشمس تحنو نحو المغيب ، معانقة
مهدمات هياكل البلدة الخرافية المدفونة في الصحراء ،
وأشعتها تلثم في احتضارها تلك الخرائب في شبه حريقة
عظيمة ؟ أم مشارفتنا قلعة الحصن ، ورقينا الدرج على
صهوات الجياد ، في عيج من الرفقة ، بين صلصلة السنايك
على البلاط ، وقعقة المهاميز ، وصهيل الافراس المتدافعة
تحت العقود ، يتداولنا جزر ومدّ الصراخ والتهليل ؟ ان
لكل يوم مشهداً يفوق سابقه روعة !

بالامس أجالنا في لبنان الكولونيل دينان Denain ،
قائد قوات سوريا الجوية ، وفادنا الى حماما التأهية في ميدان
جبلي فسيح ، حيث النزله الذي هبطه لامرتين ، يملكه
اليوم درزيان يتشابهان كثيراً بحبتيهما الحالكتين ، وبعامتيهما
الناصرتين ، وقد أرقيانا شرفة تنوء بتعاريش الياسمين والورود ،
تشرف من ناحية على البحر ، ومن أخرى على مسيل

هدير . وعلى جانبي الباب أسدان صخريان ، فشجرة تظلل
الأجار كأنها تقيه . ويسود هنالك هدوء وسكون ، وتشذو
روائح عطارة . ثم اقتنصنا برمانا من خلال غابات الصنوبر ،
والطريق المطل المؤدى الى الساحل . وشاهدنا الليل يصعد
من البحر ، وأنوار بيروت الأولى تلمع .

وفي هذا الصباح ، نحو الساعة التاسعة ، قدمت السيدة
ترابو ، عميلة حاكم لبنان ، تصحبها فتاتها الفاتنتان ، تدعونا
للغداء في قصر بيت الدين ، مقر الحاكم الصيفي . وسلكنا
طريق صيدا بين حقول الزيتون والغلال الصفرة على شاطئ
البحر ، ثم عكفنا يساراً في وادي نهر الدامور ، حيث
المنحنيات ضيقة ، والعطفات عديدة . فانتعشت أبصارنا
بمناظر المياه ، والاشجار ، والمزارع الجميلة ، بعد ان تعودت
جفاوة الصحراء ، وحدور لبنان الصغير الكاسية . فالرتم
الذهبية في أينع ازدهارها ، تتكدس على طول المسيل .
وولجنا بعد اجتيازنا قرية الدامور ، وادياً آخر ، ينتهي لدى
قرية دير القمر القانية ، حيث نقب موريس بارس ، عبثاً

عام ١٩١٤ ، عن آثار اللادى ستانهب الغامضة ، هذه
« النبيلة العاملة » ، كما يدعوها ، ولم يتوصل لنتيجة ما من
الأعيان الذين لا يهيمون بغير وادى السياسة .^(١) غير أن
الاستقراء لبلاد المشرق ، كان يجذبه أبداً ، مبتعداً به نحو
نهر أدونيس ، وقلاع الحشاشين .



تفصل هوّة عميقة ، بيت الدين عن دير القمر . ومن
ناحية منها لاح جفأة قصر الأمير بأسواره الشم ، وسرايه
الكبيرة المربعة ذات السطوح المنبسطة ، وحدائق الشربين ،
وأدغال الأشجار المزهرة . ولم تلبث ان اختفت عن
الأبصار لدى عطفة فى الطريق ، كي تعود بعد هنيهة ، فتبدو
للعيان ، والى الاختفاء جديداً . فالجبل يناوح القصر .
وأخيراً نشب به النظر ، وتشبث ، ولم يتخل عنه . فيأله من
موقف ساحر ! لقد تخيلتني شبعمت مناظر ! . . . فمن ناحية

(١) اى والله ، هذه مصيبتنا . وكل لبناني « سياسى » حاذق ، منذ
ولادته ! . . . (م . س . ك)

الوادى تهدل البساتين وتتسلق الغياض الزاهية بألوانها ،
الخضر ، والحمر ، والوردية ، والبيض . ولو أنى أدير بصرى
لشهدت هنالك بين تلين مستديرين ، البحر المتوهج فى
أضواء الشمس . . . ويرتفع القصر كتلك الضياع القائمة
على شواطئ نهر الرين . ولكنه ضيعة ضحوك ، متبرجة
لمباهج الصيف الابدى .

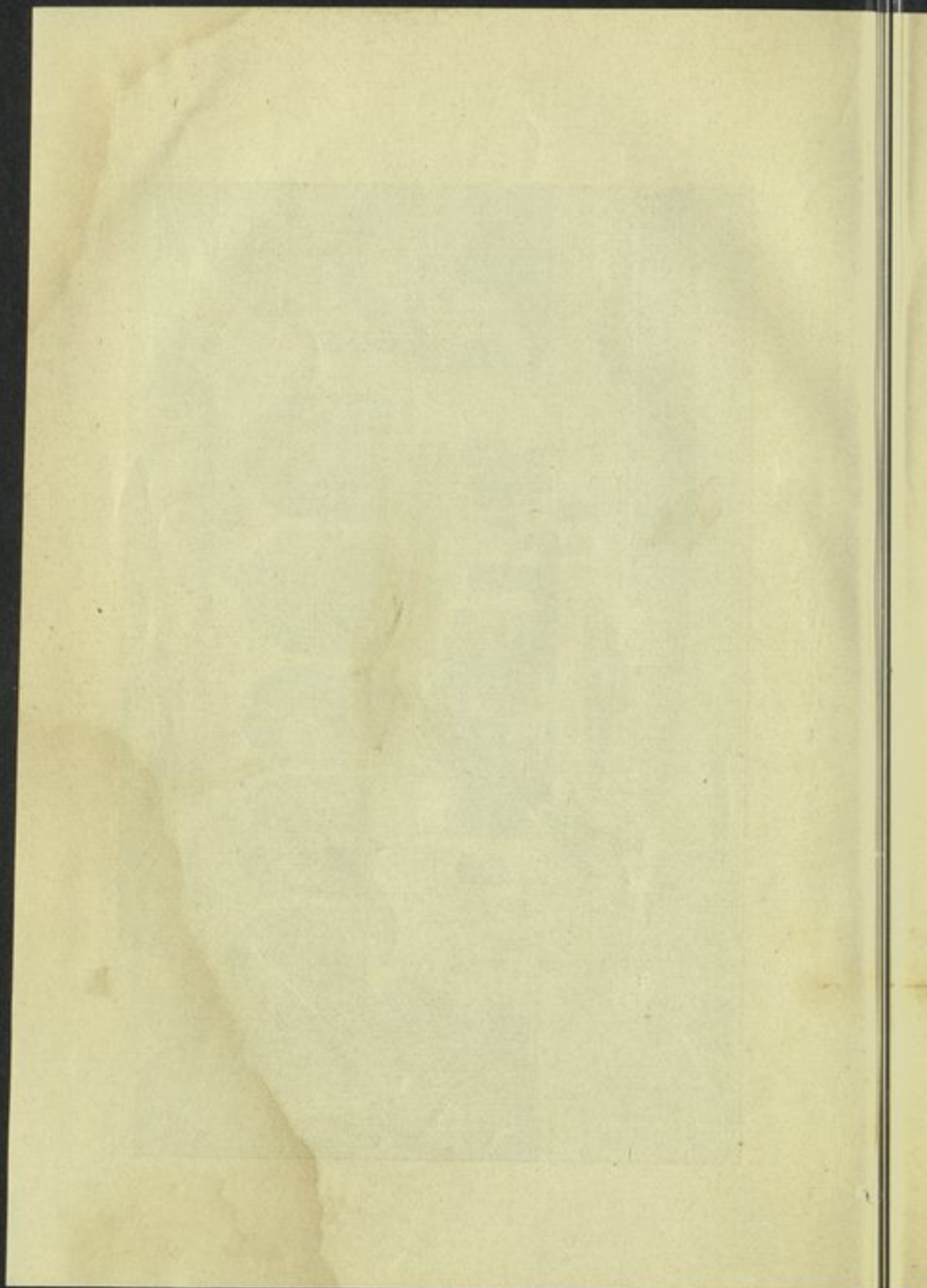
وزلقت السيارة تخترق المجر المؤدى الى فناء الدار
الاول ، الذى تطل عليه مرايض الجياد ، وتزينه نافورة
تصل مياهها السقف ، حيث تحولنا ، وولجنا الفناء التالى ،
ذا الاقواس الموشاة بعمود الزهر ، واجهنا فيه الجزء الاعظم
للقصر ، بواجهته الفائضة وشياً وسناء باهراً ، بالقاشانى ،
والرخام الوردى والاسود الالوان . والآن فهما نحن ازاء
باب الماضى ، فمن يفتحه لنا ؟ على هذه الحال فنحن سعداء
ان يكن برفقتنا الكبتن ب . . وهو من أغرب الشخصيات
التي صادفناها فى رحلتنا . فهو ذو شعور ناقد بالحاليات ،
متضلع من حوادث الماضى ، وذهنه مشحوذ بالمطالعات

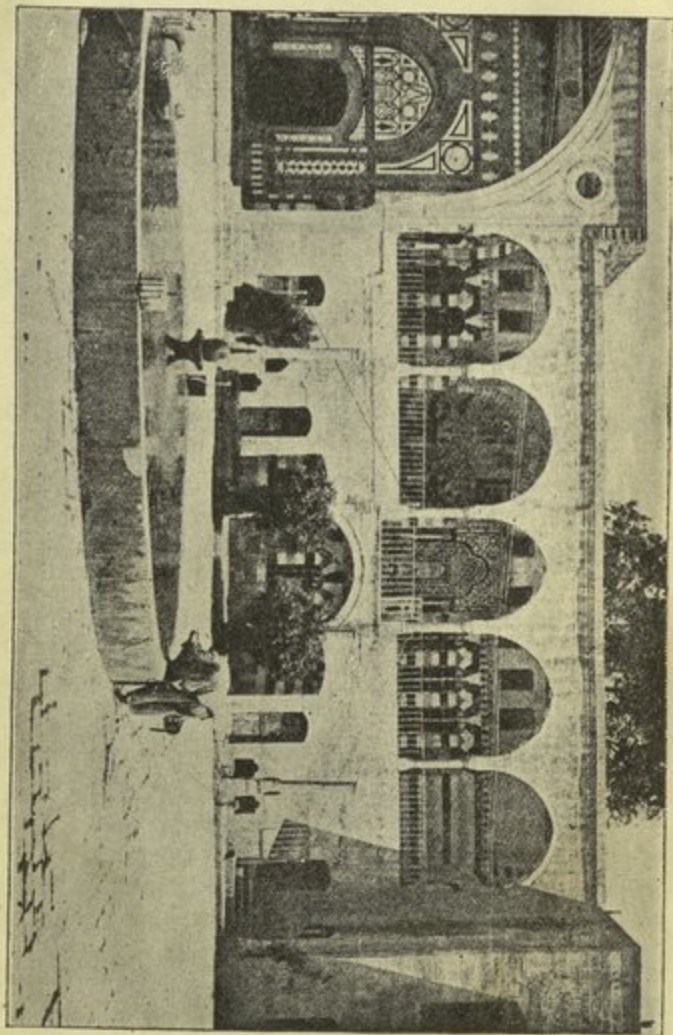
الجملة ، كما أنه يتمتع في جيش الشرق ، بشهرة فريدة جداً .
ويقول عنه زملاؤه : « ان ب. رجل ملكي ، لبث سهواً
في الجيش » ، ولكن لا يعلم أينقومون عليه ، أم يحسدونه
على سخرياته . ولقد قرأ الكبتن ب ، كل شيء ما عدا
الحوليات ، فهو يخلو حقاً من الروح العنصرية . وخلاصة
النول ، فهو رفيق سفر مستحب جداً ، ثم انه يفيض هيماً
لبيت الدين ، ويعد كل زيارة للقصر بدونه ، اهانة موجهة
اليه شخصياً . ولذا فليس يسعى أحد في جرح مشاعر هذا
الدليل الكريم .

بواسطته اذاً ستبعث حياة الساحات الزاهرة بالورود ،
فترمى الغلمان الجريد ، وتعقل الجمال ، وتكدف الخيل ،
وتزدحم حول الفسقيات ، جموع الدروز والوارنة والمتاوله .
فالكبتن ب « مُحبي » غريب . فهو يحفظ « الرحلة الى
الشرق » عن ظهر قلب . وقد أشار لنا من احدى السطوح ،
ذات القوائم الدقيقة ، الى نوافذ زجاجية مربعة ، هي :
غرفة لامرتين .

وانى في هذه الحالة لأرغب عن هذه المناظر المتطاحنة
الطيقان المقفرة وأنين النافورات فقط. لأن في روح العزلة
والسكون والغموض وفاقاً لهذا الزخرف الروائى .

يحوط الفناء الثالث ، الأصغر من الآخرين والمزدهر
بالزهور ، رواق عربى الزخرف^(١) ، يزدان بالرسوم الجميلة ،
الأنيقة ، وحواليه تمتد المقاصير ، التى يسكنها القومندان
ترابو وذووه . وقد لحظت قاعة فرش بساطها بالفسيفساء ،
وبها جربت من المرمر . واذ رفعت باصرتى الى أعلى ، لم
أتمكن أن أتخاشى عن صرخة دهش ، لأن النقش هو
خفخة الذهب والخضرة . فالذهب البسيط ، والذهب الاحمر ،
والذهب الاصفر ، ثم الخضرة الغليظة المدهامة ، والخضرة
الضاربة للزرقة ، والخضرة كاون حجر اليشب ، فالخضرة
الكدرية ترع في افراط من النقوش الزهرية ، والوشى
النباتى ، والتعاريش . وهى كمنط الوان جامع عمرو ذاتها .
وأدرك الكبتن حركتى ، فقال :





قصر الأمير بشير في بيت الدين

— اليس حقاً أن بشيراً كان ذا ذوق دقيق ؟ انه لم
يتردد في بتر يديّ الفنان ، مبدع هذا السقف ، كي يحول
دون انشائه مثيلاً له .

انه ولع بالفرن خارق العادة .

وهبطنا درجاً خشبية الى الحدائق ، التي تحترقها مياه
خريرة ، وينجم فيها شجر السرو والحزين ، بين دائرة الزيزفون
والطلح ، ويعبق الهواء بالأريج . وكان لهذا الصبح حرارة
أشد أيام القيظ عندنا .

ورف فوق القصر سرب من الججلان ، فلم يفتم
ملاحظة هذا الكبش الهائل الذي لم تفته فائتة . فاستحال
عليه أن يمسك عن التحدث اليينا عن احدى وقائع صيد
الأمير بشير ، كأنه حضرها عياناً . وقد جلسنا في الظليل
ساكنات ، والنسيم يهب علينا . وكلنا آذان ناصتة اليه : —
— انكن تبصرن هذه الشاهقات وراء دير القمر ؟
فان بشيراً اذا ما طلب الصيد في شهر كانون الثاني ، وبالاكثر

في شهر شباط ، سارت لدى انبثاق الفجر سخرة مؤلفة من
اثني عشر الف فلاح ، يطلبون القمم ، ويضجون ضجيجاً
حاداً لطرد الطير ويرمون الحجارة نحو الجهة مطلب الصيد ،
حيث الأمير يدخن ، وعلى زنده بازه ^(١) . يحوطه رهط من
أمراء الشهابيين و« المقاطعية » الموالين ، وأولاده ، وحاشيته ،
وقواده . والغلمان تحمل البزاة على مجاثمها ، ثم خمسون فارساً
على أهبة الوثوب ، وكلاب الصيد تصم هريراً ، فاذا مالح
أول حجل أنار اليه بازه . فيسمو هذا نحو السماء ، ثم يعتدل ،
ثم يخلق في رسم عدة دوائر ، ويبصر الطير فيهبط عليه
كانطلاق القذيفة . وفي الحال يهمز البشير على فرسه الصهباء
— وهي الفرس التي راهن أنه يشرب فنجان القهوة طامخاً
على صهوتها . وهي في أقصى سرعتها . دون أن يريق نقطة
واحدة . وبالفعل فاز بالرهان ، فان عدوها كان ممتازاً بالسرعة

(١) كان أحب باز لدى المولى يدعى « كاسب » وقد اقيم له نصب ،
وانتهر بتصيد المعلم بطرس كرامة ، التي قتلها فيه ، والتي مظهرها :
« تلالاً البدر وانجحت الغياهب . . . » م . س . ك .

واللين والرقه - وتتلوه في المؤخرة الصافنات العربية الجميلة ، تسبح أعرافها فوق الدغل ، فتخترق المزارع في حماسة وسرعة وتجمع ، وتثب من فوق السياجات ، وتخرب البساتين ، وتتوهج أشعة الشمس على وذائل وخرز السروج ، كما تعدو كاللهب ، فوق التلال والحقول ، ملابس الأمراء المزركشه ، وعباءات الشيوخ الحمر ، والخضر ، والبنفسجية . ويمتلئ الجبل بترجيعات الصدى ، من نباح الكلاب ، وصراخ المطاردين ، وانطلاقات البنادق . ويخلصون الجبل من نواشب الباز ، وقد التقم مخه .

وإذا ما انتهى النهار تراكم الصيد ، فيقدمه البشير الى ضيوفه ، ويفرقه على رجاله . ولا تقام حفلات القنص الملكية هذه ، عدا مرة أو مرتين في كل شتاء . ولا يقفلون الى ذات البقعة ، الامرة كل خمسة أعوام . ولولا ذلك لما بقى حجل واحد في لبنان وبعد ذلك تعلن حدثني عن حفلات الصيد في شانتيلي Chantilly ! .

ثم قادننا من جهة الجبل الى حديقة أخرى تزهو

بأشجار الصنوبر الحلبي الأصل ، وأشجار الرمان الزاهرة ،
حيث توجد ستة صيوانات مزوقة بأجران المرمر الوردى ،
والفسيفساء الرقيقة ، والفسقيات ، والرواقات المقببة
بالزجاج ، وهي تقوم كقاعات خلوة . وبدأ الكبتن الشرح
باسماً : -

- تأكدن أنه في هذا المكان : كانت نساء الأمير
يتذوقن السكريات ، وهن يتفاكهن الحديث . وقد كان
أمام هذا الفسطاق فيما مضى ، فوارة في جرن من الرخام
الأبيض ، تسبح فيه الأسماك الذهبية اللون ، وحول هذا
الحوض دائرة من التماثيل ، تنبعث منها نغمات شجية جداً ،
تنشئ عن نظام آلى مدهش تديره المياه .

- اذن كي يكمل هذا المشهد ، وجب أن تكن
الأميرات جميلات ؟

- انهن كذلك يا آنسات ، فلا تشكن أبداً . خليلة
الأمير تدعى ، حسنى جهان ، « أى جمال العالم » . فإذا
تبغين زيادة ؟ ثم تمر أمامى على الأثر هذه الأميرة البابلية

مارية ترازية أسمر - التي خلفت عن الحياة في بيت الدين في القرن التاسع عشر ، صورة فائقة الغرابة - ثم تملو العربيات بأوجههنّ المستطيلة ، والعيون الكبيرة الموسعة بالسكحل ، يتوشحن بعراقيات حلب المحرمة ، ويلبسن كبراً قصيراً ، ويزلجن خنجراً ، ثم الكرجيات (الجورجيات) بالوانهن الوردية ، فالدرزيات الغريبات بعيونهن الزرق

فضحكنا واتهمنا الكبتن بعرفة أميرات بيت الدين ، أكثر مما يعرفهن سوريات بيروت . ثم عكفنا نسأله عن مارية ترازية الاسمر ، التي حازت الشرف أن تذكر في هذه القائمة على حدة . فوعدنا أن يعرنا يوميات هذه الاميرة ، التي برزت بالانجليزية في لندن نحو سنة ١٨٤٠^(١) ، وقد أسعده الحظ باكتشافها في احدى الايام لدى أحد باعة العتقيات . ومد سماط الغذاء في حديقة النساء ، اللاتي كن يرقبن منها طريق دير القمر ، ويسرحن البصر وهن بمنعزل عن

(١) ظهرت هذه اليوميات سنة ١٨٤٤ . كما سيحيى ، بك في الفصل الاخير من هذا الكتاب . ولعل هذه هنا هفوة مطبعية . م . س . ك

الانظار . وكان نسيم لبنان يهب علينا ، حينما بدأنا بالتهايم
الدجاجة المبردة ، صامتات ، غير أننا ما لبثنا ان افتتحنا الحديث
بجأة ، وانماالت الاستيضاحات على هذا السبيل الحظ ب...
حتى أغرقناه بها . وما كان يسمع آتئذ غير كلمة « درزى »
وكل يخبط فى اشتقاقها .

— أحقيقة ان الدروز من سلالة الكونت دى درو
Comte de Dreux ، الذى نيط به الدفاع عن بيت لحم
المحصرة بالسراسين ، والذى جالد مدى أربعين عاماً عن
قلعته جبل الفريديس ؟

— لا ، فقد قدم الدروز من مصر

— أم من بلاد فارس

— ولم لا يكونون من الهند ؟

وكان الكبتن قد فاز بالتقام قطعة الدجاجة ، فالتفت

نحو القتليات حانقاً : —

— تتكلمن على الدروز ، وانى أشهد أنكين لا تعرفن

قط الحاكم بأمر الله ، الملقب بنبيرون المسلم ؟

فاضطررنا للاقرار بجهلنا . وتابع : - أو على الاقل
برقة الدجال^(١) ذى القناع الذهبى ؟
- ولا هذا ...

فزجر الكبتين رافعاً ناظره الى السماء: وحزاة الفارس؟ ..
لا ؟ اذاً ماذا تدرسكن المعلمات فى كلياتكن ؟ يجب أن
تعقدن يا آنسات مع فولني Volney أن الدروز أتوا من
مصر . فقد ولي الخلافة فى القاهرة عام ٣٨٦ هجرى ، الحاكم
بأمر الله ، الذى سئدعوه بيننا بالحكم . وكان يبشر بالذهب
الاسماعيلى ، الذى أذاعه القرامطة فى بلاد العرب ، وجلبه
الى مصر المغامر عبيد الله ، مؤسس السلالة الفاطمية . ولكن
مالنا وللفاطميين . فالاسماعيلية يؤمنون أن النفس والعقل

(١) لم يكن اسمه برقة بل عطاء ، وما برقة الا اسم قرية فى ايران .
وقد وجدنا الاستاذ مصطفي جواد ، قد عاقى على هذه ، بالآتي :-
« هر عطاء المقنع الحراساني الحلولى الذى اتخذ لنفسه وجهاً من الذهب
فلم ينزعه قط ، لئلا يطلع الناس على وجهه المشوه ، وكان يدعى أن الله تعالى
حل فى نفسه ، بالانتقال والمناسخة ، والشهور انه كان بقلة سنم من رستاق
« كش » كما فى الوفيات لابن خلكان . وبرقة هذه من قرى « قم » من
نواحي الجبل بايران ، كما فى معجم البلدان » م . س . ك .

الذين بواسطتهما كوّن الله العالم ، تقمصتا في سلسلة من
الأنبياء كوسى ، ويسوع ، ومحمد . ثم في رسلهم من بعدهم
كهارون والقديس بطرس ، وعلى . وانتقلت فضائل
الأخير الى الأئمة . ولكن معذرة لهذه التوطئة العسيرة !
غير أن الحاكم بعد ان سلك بعض سبل التسامح والرزانة ،
أبدى علاماً ساطعة لجنون ديني . هذا ان لم تكن تدابير
تدجيلية . فقد أذاع ان الله حلّ فيه ، وانه ، أي الحاكم ، هو
هدف هذا الحلول الخارق ، مما يحول صراحة دون البحث . ولم
يلبث أن أنشأ مضابط عامة ، ليوقعها أولئك الذين يؤمنون
بالوهيته . وبالفعل أقرّ هذه المهزأة ، ستة عشر الف شخص .
وقد شددت عزيمته هذه الموافقة المضحكة . حتى أنه توألم
يضع حداً لتطرفاته ، تاركاً شعره ينمو ، وأظافره تطول ،
ساعياً الى التلذذ الشيطاني . بمهاجمة العوائد والسنن الشدّي
مسألة ، والتقاليد الراسخى قدماً . مجولاً ليسلاً في شوارع
القاهرة تارةً مضيئةً ومأنجةً كرائحة النهار ، وتارةً غاسقة
صامتة ، كيفما راق جنونه .

« وجأة هاجت النساء سخيمته^(١) ، فنعنهن من مبارحة
مسكنهن ، وحظر على الاساكيف ، عمل نعال لهن
بوعيد الموت . وأمر أن تقدم لهن الأطعمة على مناخس
طويلة كأئهن وحوش ضارية . ثم أدار الخليفة جام غضبه
نحو النصارى ، ولذا لقب لفظاظته ، بنيرون المسلم . فقد
محق الكنيسة ، ومحلة النصارى فى القاهرة ، وأنشأ مكانهما
الجامع الأزهر . وأخرب فى القدس كنيسة القيامة تماماً .
ثم أضرم النار فى ربع العاصمة المصرية . وترك الأموات
دون دفن ، وقد ألقوا للكلاب . وانكن ذهول الشعب
الضعيف عن الثورة ، بلغ أشده حينما جهر الحاكم بالدين
الجديد . الذى كان هو فيه : الاله والرئيس الدينى . »

« ولم يحفظ من أركان الاسلام الخمسة (ولست أود
اضجاركن بتعدادها) غير الاعتقاد بوحدانية الله (الشهادة) ،
وأعانه أفراد الجماعة (الزكاة) أما الصلاة اليومية ، وصلاة
الجمعة ، والمحافضة على الأعياد ، وصوم رمضان ، والختان ،

والحج الى مكة ، فقد ضرب بها عرض الحائط . كما أنه سمح
بأكل اللحم المحرم . وأجاز جماع ذوى القربى .
« وقد أشار بعض المؤلفين ، أن وزير الحاكم كان حمزه
(الفارسي) الخراساني الجذر ، وهذا دون شك كان متضلعاً
من تعاليم الأفاق « حاكم - برقه » ذى القناع الذهبى .
الذى هاج خراسان عام ١٦٠ هجرى . ولم يزل له أتباع تؤمن
بالوهيته . »

« ان العقائد تدل تماماً أنها ذات العقائد التى كان يبشر
بها برقه . هذا اليهودى الذى فاز بحنكته ، وشجاعته النادرة ،
أن يميز نفسه كتأنس الله . وكانت حياته الحققة . أوقع غرابة
من القصص ! فقد أصابه عور فى معركة ، نشأ عنه أن
ستر وجهه من حينها بقناع من الذهب . وحين هزم وحوصر
فى قلعة ، عمل فكره ، وقد شهد أواخر أعوانه ينجرون
صرعى ، فى تلفيق ميمة له جذيرة « يبطل إله » وذلك بأن
طمر ذاته فى دن كأس حار . »
« وكان أشد أتباع الاله الحاكم حماسةً ، قد هاجروا

وكامهم صدور تقيض رجاء ، الى سوريا ، أرض دين المسيح ،
وأيضاً أرض المعتقدات الشدّى غموضاً. حيث تشمخ قلاع
شيخ الجبل على منأى غير بعيد من جبل الجلجلة ، حيث
تنمو أشد المذاهب عداوة ، كالشيعة ، الاسماعيلية ، النصرانية ،
الموارنة ، واليهود على ضفاف نهر أدونيس ، وبين أطلال
الهيكل المكرسة لآلهة آسيا . وعلى هذه الأرض النابعة
بطائح ووثنية ، تتمكن الزهور المنقعى سماً ، أن تنبت وتينع
طبقاً لغرايتها . »

« وفي غضون ذلك ، تم لمصر الفلاح أن تنجو من هذا
المعتوه الطاغية ، إذ غدرت أخت الخليفة به . ولعل الوزير
لم يكن عن ذلك غريباً . لأنه تمكن بعد ذلك ، أن يجبك
بحدافة الظروف المريبة ، التي أحاطت بهذه الميته ، حاصداً
دون عناء الخلافة الالهية . وهناك على حدود الحرمون وفي
واديان وادي التيم ، كان سكان الجبال يهرعون كل يوم في
ازدياد ، للتلقن على المتفقيين في هذا الدين الطريف ، في
هذه المجموعة المهمة المبليلة ، من ذكريات اسماعيلية ،

ومذاهب صابئية ويهودية ، وأقاصيص من أقاصى بلاد
العجم . وأعلمهم حمزة عن رجوع الاله : « سياتى فى يوم
مشهود . من شهر رجب ، وستعلن الأرض مقدمه
بخوارق ، وعند ذلك يمجداً أبناءه ، وتفتتح هذه الارض من
جهاها جمعاء ، وتنخسف الجبال فى الاعماق ، فيستوى كل
شئ . التلال تصير كالوديان الصغيرة ، والجبال كالسهول
الشاسعة ، الأقوياء كالضعفاء ، والفقراء كالاغنياء »
— ان يوحنا المعمدان ، قال قبل صاحبك حمزة بألف
عام :— « أعدوا طريق الرب ، واجعلوا سبيله قويمه . كل
واد يمتلىء ، وكل جبل وتل ينخفض ، والمعوج يستقيم ،
ووعر الطريق يصير سهلاً . ويعاين كل ذى جسد خلاص
الله ^(١) »

فتأملنا الكتابين برفق ، واستصوب الملاحظة ، ثم تابع :
— وكان حمزة هذا ، فى الحقيقة . داهية دهاية ، متعمقاً
فى المباحث الدينية القديمة ايه . أجدنى قائماً فيمكن

خطيباً ، دون أن أفقنّ علي اشتقاق كلمة « درزی » غير
اني أكفيكن تعداد الملاحم والمشادات ، التي أدار رحاها ،
حول هذا الأصل ، علماء كل اللغات ، وكل الأجيال . فبعضهم
يرون أن العوام لقبوا الدرّوز هكذا نقلاً عن اسم أحد متعصبة
حمزة ، المدعو نشتكين الدرزي ، والآخرين يقولون أن
حمزة ذاته ثبت تلامذته قائلاً : « اذهبوا الآن ، فأنتم لستم
بعد الآن « متدارسين » بل « متدارسين » ^(١) ، لأنكم
قد اکتزتم علوماً ، وغرزاللهام فيكم كما يغرز الخيط البزوز »
« غير اني أدع لكنّ الأمر أن تصدقن ما شئتن ،
أولا تصدقن شيئاً على الاطلاق . وعلى كل حال فالديانة
الدرزية غير معروفة تماماً . فهذه مارية ترازية الأسير ، التي
حدثكن عنها منذ هنيهة ، يا آنسات ، وقع اليها كتب
حاوية عقائد الايمان الدرزي ، ولكنها لم تجسر على تصفحها
لوساوس دينية — وقد كانت مسيحية — ولعلها لم تكن

(١) الارجح ان هاتين الكلمتين هما : « مُتَدَارِسِينَ »
و « مُدَرِّسِينَ » وهما اقرب الى الصواب ، ولها وجه . والله اعلم !
(م . س . ك)

لتفقه منها الأمر الجليل. وفي عام ١٨٣٨ ، استولت جيوش
ابراهيم باشا ، وذلك أثناء الثورة الدرزية الشهيرة في حوران ،
على بعض هذه المجموعات مثل «كتاب المعجائب والاسرار»
و «الكتاب الأحمر أو المقدس» وكانت متونها مغلقة ؛
محموسة نصوصاً سحرية ، ومقاطع غامضة قصداً .
« والآن اعذرني على اضجاري اياكن ، هذا الزمن
الطويل . . . وهل يرق لكنّ أصدقائي الدروز ؟ . . . اقرآن
ما كتبه أحد قناصلنا هنري جيز Henri Guys «أنباء اقامة
أعوام عديدة في بيروت ولبنان» . أو ما خطه فردينان بيريه
Ferdinand Perrier ، «سورية في حكم محمد علي» أما ان
كنتن يا آنسات على جلد عظيم . فأنصحكن بقراءة الثلاث
المجلدات التي تحتوى على مذكرات الليدى استرستانهوب ،
فلن تأسفن على نصبكن . . . واني سأصمت ، وسأصمت ،
حتى بيروت . والا فانكنّ تلمننى فقدان وظيفتى «أمانة
بيت الدين» وذلك بأن تدعن في كل مكان : «يا له من
ثرثار لا يطاق !» وعندكن الحق »

وبارحنا بعد قليل قصر الجبل وحدائقه ، وهممنا بالدرب
المؤدى الى جسر القاضى ، وانه ليعلق بي ، افتنان بقعة من
الألوان العاسفة . فالجسر أصفر ممغر ، والماء ضارب الى
الخضرة . فنزل بلون زهرة ابرة الراهب الحمراء يشرف على
المسيل . . . ومن ثم أدر كنا عالية ، وأبنا الى بيروت .

وعندما هبطنا من السيارة ، علمنا أن الباخرة آسيا
تقلع فى الغد بعد الظهر ، وهكذا كان بيت الدين آخر منظر
لنا من المشرق ، وآخر ابتسامه الأرض السورية ، ابتسامه
الأروقة الوردية اللون ، والمياه والأزهار ، ومشهد دهر
كامل اضمحل الى الأبد .

وبعد تناولنا العشاء فى المفوضية ، دنا منى الكبين
ب . . . بحال غريب . ودفع إلى مجلدين بادى القذارة ، واذ
استوضحت الخبر أجاب مستغرباً : « ما هذه الا الاميرة
أسمر ! »

فلم أجسر على الاقرار أنه غاب عن ذهنى كل شئ ،
حتى وجود هذه الأميرة الشهيرة ، ثم شكرته بجرارة .

هذا هو الداعي الذي صرفني عن ترتيب حقايب هذه
الليلة ، الى تصفح هذين الكتابين ، دون اهتمام في بادئ
الامر ، تحول فيما بعد الى رغبة وولع . فانتقلت الى بيت
الدين في سراي الأمير الطائن ، في فجر القرن التاسع عشر .
ولمعرفة بزخارفه . توضحت وانتعشت أمامي المغامرة
الفريدة ، التي قامت بها مارية ترازية أسمر . وكانت الساعات
تولى سراعا ، وليل المشرق يلجج من النافذة ، ليل ينسكب
عدوية ، تشذيه تلك الروائح المتغلغلة ، أريج البرتقال والياسمين
والورود « التي لا يمكن تعريفها ، بل هي كعبير المشرق ذاته ،
والتي تشمل » .





المنشأ على ضفاف دجلة

كانت تدعى مارية ترازية الأسمر ، ومولدها على
أطلال نينوى فادخرت في عينها انعكسات مناظر حقول
الحجارة البالية ، التي تأملتها في انبلاج طفولتها . فهل كان
ياترى في هذا الميلاد العديم الغبطة ، انذار لحظ غريب بأئس ؟
وكان والدها الأمير عبد الله الاسمر ، وينتسب الى كنيسة
ترافنكور Travancore . التي أسسها القديس تومارسل
الهند ، يسكن بغداد ، الداخلة ضمن امبراطورية آل عثمان
منذ فجر القرن السابع عشر ، حيث يمتلك بها أملاكاً هائلة :
أراضي شاسعة ، معامل حرير ، قطعان ماشية ، وقوافل
جمال . وكان رجلاً عادلاً صالحاً ، كأنه أحد آباء التوراة ، وله

من الولد ستة عشر ولداً . وما لبث ان اكتسح المدينة طاعون مروّع عام ١٨٠٤ : أهاب بالامير عبد الله أن يشدر حاله عجباً مع آله ، الى احدى ممتلكاته الواقعة على مقام نينوى القديمة . حيث كان للأميرة الصغيرة أن تبصر الوجود .

وتمكن ذووها من العودة بعد قليل الى قصرهم الأبيض المطلّ على نهر دجلة ، بحدايقه المكتظة بالبرتقال والليمون . فكانت مارية واخوتها يتسابقون صارخين تحت العقود الظليلة ، في رياض بغداد التابعة لهم .

وفي ذلك العهد كان مسلم غليظ القلب ثقيل ، يمتلك البستان المجاور لقصرهم . وبهذا أحسن أشجار ليمون العالم ، تدلى ثمارها الكبيرة الضخمة على الحائط المشترك . فكانت الفتاة الصغيرة تأتي صوبها ما بين هنيهات اللعب ترقب نضجها بلسان متدل ، وعين ندية . ولم يكن البستان حيث اقتطفت حواء التفاحة المحرّمة ببيعيد ، حتى تقوى مارية ترابية على قهر التجربة ... ولم تكن ثمرة أخرى محللة اكثر عصيراً وأذ نكهة من هذه ... ولكن أوه ! فان لذعات الضمير

افتترستها ، وهى على الدوام فى ازدياد ، لا سيما عند تلاوة الصلاة المشتركة كل ليلة ، وأثناء تلاوة التعاليم الالهية . ولذا عزمتم عزماً باتاً أن تصلح زلتها ، من دون أى تأخير . ولما كان بستان والدها لا يحوى ثماراً تماثل الفواكه المختلصة ، لجأت الى حل التحكيم ، وذلك بأن تبدل الصنف بالكمية . وما عتمت ان أنفذت رأيها ، بأن أطلقت بملء قوتها عبر الجدار ، أربع أو خمس ليونات كبيرة الحجم ، سقطت برمتها على أبناء الجار وهم يلعبون هادئين . فصرخوا هلعاً ، وقد كدوا يفقدون الصواب . وانضم اليهم صخب الوالدين الخائقين . وهكذا كان الاصلاح أشد جلبه من السرقة . ولم تفارق قط المنكودة مارية ترازية سداجتها المخزنة ، ولا يقينها المفرط باستقامة نبي الانسان ، فقد صرفت حياتها ترى الليمون فى بساتين الغير

ودنت الساعة ، التى وجب عليها ، احلالها للشيوخ الفتى المختار لها ساعة ميلادها . وكان عمرها آنئذ اثني عشر عاماً . وهو يبلغ الخامسة عشر ونصفاً . ولكنها كانت فتاة نشيطة

جسوراً مقحاماً . فطوراً تلهو بالتمارين العنيفة ، وتشغف ،
بالجولان الطويل على صفاف دجلة ، وطوراً تنعزل في غرفها ،
تقضى الليالي برمتها غرقى في الصلاة . ومع أنها لم تكن على
حسن يضاهاى جمال شقيقتها الكبرى - ذات اللون الناعم
المشرب بالحمرة ، والعينين النجلاوين اللوزيتين ، والشعر
الكستنائى ، مما ألقاها بحق لقب « فريدة » - فنهبا كانت
على جانب عظيم من الملاحظة . فلامحها نقية ، وجبينها عال ،
ينضب ذكاء ، ونظرها ثاقب صاف معاً . وأحياناً كانت
نظراتها الفتية الكيسة ، تشع حمياً غريبة ، يكال ذلك كله
علمها الخارق ، فقد اقتبست من اللغات دون جهد: اللاتينية ،
الايطالية ، الافرنسية ، الهندية ، والعبرانية . كما ان الالهجات
السريانية والسكادانية ، لم تكن بالغريبة عنها . فبئر أن أفكاراً
مجهولة من الشرقيات ، ما لبثت ان أضامت ذلك المحيا الرطب .
اذ أدارت سكان جدها نحو حالة النساء في تركيا^(١) . فحقت

(١) مجمع السيدة المؤمنة بلقظة « تركيا » لا دولة تركيا ذاتها ، بل
سائر البلدان الواقعة أو انبثت تحت راية الهلال العثمانى ، كما تعنى مراراً بلقظة
« تركي » المسلم . (س . م . ك)

من التفاوت بين الجنسين . وحدثت نفسها عازمة عزماً
صادقاً على تحرير أخواتها . فهي لذلك دون أدنى منازع ،
أولى الشقيقات « النسويات » لكنها عاملة نسوية حكيمة .
وكانت ما لبثت أن صارحت أباها بنيتها بالتنسك ،
منذ بلغت السادسة من العمر . فابتسم والدها لما عده طيشاً .
فأدارت وجهها نحو خطيبها سائلة عتقها بالراح عظيم ، أفضى
الى زهد هذا فيها ، فدخوله الدير في لبنان

وحدث في ذلك العهد أن ولي باشا جديد على الموصل .
فاضطهد النصارى متبعاً السنة السارية في سائر أنحاء تركيا
وقتئذ . والقيت اذ ذاك عائلة الاسمر في أعماق السجون .
وبعد ان جلدوا ونكل بهم ، أطلق سراحهم بقدية عظيمة .
ولم يرض سوى القليل حتى خطرت جدمارية ترازية ،
الفكرة المشؤومة ، بتشيد كنيسة في « تل قاف » ومن
غفلة أو خباثة المهندس ، لم تقم طبق الرسوم المجازة . فتجاوزت
المقاسات المصرح بها من الباشا . وكان الجزء غمرات

السجن من جديد ، غير أن جشع الأتراك لم يلبث أن تغلب على قساوتهم .

واضطر الأمير عبد الله الأسمر الى التخلي عن ممتلكاته ، ومطاحنه ، وخيله ، وقطعان ماشيته ، وجواهره ، وبدا أضع كل شيء ، ولم يبق له سوى ولده وإيمانه ، وجسد دام مثنى ، يبعث الحياة في ارادة لا تلين ، لتخلق وتبني قصوره ، وزرع رياضه ، وتنشئ قوافله التي عادت رويداً رويداً تقطع الفلوات ما بين دجلة ودمشق . وكلل له النجاح عام ١٨٢٠ . وسكن هو وذووه البالغ عددهم الأربعين بما فيهم الخدم ، قصرأ في الموصل ، كقصر اللوفر رحابة في باريس . وعادت الحياة الثرية الى مجاريها كما كانت من قبل وعاد والدها ، جُلب على نفسه لسوء الطالع ، يقظة الحكومة ، اذ أولم لخلافه ، وليمة في حدائقه القائمة على طلل نينوى . فعلى الباشا ظنوناً عن هذه الثروة ، التي لا يمكنه ، وهو تركي صميم ، أن ينسبها الى العمل والجد . فأنهم حالاً الأمير عبد الله ، بالعثور على كنوز في نينوى .

فأرسخ بالقيود مرة أخرى. وأودع غياهب السجون التركية. ولن تنسى مارية ترازية عويل والدها وأشقائها، من فرط الألم، أثناء جلدهم والتنكيل بهم. غير أن الحجة كانت صفقة رابحة في الاستيلاء من جديد، على أملاك الأمير، الذي أطلقه الباشا مدنفًا. ولم تعش والدة مارية ترازية كثيرًا من بعد حليتها. يلي ذلك هجوم طاعون احتسب في الموصل وما حوالها، ما يقرب من مائة الف ضحية. وشهدت مارية ترازية كل من يلوذ بها يضمحلون: أشقائها، أبناء عمها، ذوى قرباها، وأصدقائها الذين تصلها واياهم قرية الفؤاد والروح، أكثر من رابطة الدم، ولبثت هي وحيدة فريدة بين تلاشيات الأحياء المخيفة يتتاعهم جوف الأرض... ورجعت الى بغداد تكاد تفقد الرشده.

ولم تحمل سنوات الحداد والحزن دون تفكيرها بإبراز مطامعها النسوية، وأمانها في الرسالة، الى حيز الوجود. وان ذلّ النساء مدعوم بالاسلام. فلمرأة أمة خرساء، محظورة في الحريم، مع قطع من النساء والسراري. وهي

شيء لا يقام له وزن : فاذا طاب لرب البيت أصلها غداً ،
أو باعها في السوق العام . . . هذا ما تخيلته في الموصل عام
١٨٢٠ ، أميرة بابلية أخرجها الأتراك : أن تهدي الإسلام
عن سبيل المرأة .

ولكن المقاومة كانت عامة . فالتصاري كانوا يعدونها
معتوهة ، ولكن مارية ترازية لم تقنط ، بل حاولت
وبرهنت ، وأخمت ، وألحت ، فانتصرت . ولقيت معاضدة
بعض المقتنعين . فافتتحت مدرسة للنساء الراغبات في العلم ،
يأتين إليها فيتعلمن التفكير والقراءة ، والكتابة ، والخياطة .
وكان العدد ينمو يوماً بعد يوم ، غير أن وصول مرسل سافل
معاد : أباد عمل مارية ترازية . فأوصدت باب المعامة ، والتزمت
الأميرة التعسة ، خافقة مقهورة ، أن تلجأ الى ضيافة صديق
والدها : سيد قبيلة الرياح ^(١) .

(١) بالافرنجية مكتوبة هكذا DRYAAH ، تظهر كأنها «رياح» ونظنها
أقرب الى أسماء هذه القبائل : ضريية ، ضروعة ، أو ضريعة .
(م . س . ك .)

لبنان زانو عن الربيع وش
وموكيو الشور غانه وث



من الموصل الى بيت الدين

قضت مارية ترازية ستة أشهر تأوى الخيام السفح .
ستة أشهر كانت ضيفاً كريماً ، تشاطر القوم الشواء المألوف ،
وتستسيع شواء الغزال ، وسط حياة طليقة في جوف البادية ،
حيث السكينة وهدوء الليالي ، وقريرة الصبح ، وجود الاشياء
تنفذ الفؤاد . فكانت تنهض فجراً ، في أيام راحتها هذه ، تصلي
تحت سماء أدنى من سماء بغداد ، بين النساء الملقوحات الهيف
الجميلات ، اللاتي كن يقمن بالخدمة البيتية ، في جلال فريد ،
وقد أعجبت ترازية بجسدهن وبسالتهن المضاهية للرجال ،
وذكأهن الادق . فكانت تقرأ لهن الكتاب المقدس . واذا
ما أدجى الليل ، اجتمعت عائلة الشيخ حول النيران ، التي

تبدو في صحراء الظلام والرمال كأنها الأحياء الوحيدة في
جوفها. ومن ثم تأخذ الأقاويص ، مكان الأغنية المحزنة .
وفي يوم ما رفعوا الرجال . فدوى هرج الخيل ،
وضجيج النساء ، وحرن الجمال الراضحة تحت ثقل رحالها ،
ومرح الفلول الغير المجللة ، وغناء ، وصهيل ، وصياح ،
وأصوات المطارق على أوتاد الخيام . وتحركت القبيلة في
قافلة تتلوى كالثعبان ، تنساب على الرمال . فالرجال على
الركائب ، والنساء مكدسات على ظهور الجمال . ثم الاطفال
والاقتال ، والماشية . ويجرى على جانبي القافلة فتیان يحملون
اللحم ، والخبز ، والتمر ، يصيحون « ليتقدم الجائع ! .. »
وشهدت مارية ترازية عقد قران ، فترقت مقدم
الخطيب ، متخفية في زى البدو . فأبصرت فارساً ممتطياً
حجرة فريدة الثمن ، يهز قناة عالية ست عشرة قدماً ، يعلوها
علم أبيض ، تتلوه جمائل مزينة ، مجللة بالورود ، مبهرجة
بأضراب العصون والزهور ، تهادى مضطربة ، في هذه
المفخرة الجهرية ، وما هذا أجمعه سوى جزء من الصداق

المبعوث به من العريس . وبعد ذلك يأتي عبد يحوطه جوق
من المغنين ، ففرقة مقاتلين يطلقون بنادقهم ، فرهط من
النساء يحملن مواقداً ، تحرق عليها أعواد الندى . وفي الاثر
رعاة يسوقون أغناماً ، يلعلعون صياحاً : « هكذا كان يصنع
شيبوب شقيق عنزة ، منذ عشرين الف عام . . . »^(١)

وكانت الزنبيات المهديات الى العروس ، يرقصن أمام
البعير المحمل بجهاز العرس ، من المشالخ الموشاة بالذهب ،
والخمر المرقطة ، واخفاف الصفر ، يكمل هذا المشهد صبي
ينادى دون انقطاع : « لينتصر قومنا دواماً ! » وتتلو
العروس على خلفها الابيض ، المكسو بريش النعام ، فتشهد
مصارعات الظفر بها ، متحجبة مستورة وراء سجوف
هودجها . . . وظلت ماربة ترازية تشاطر القوم ملاهيهم
وأفراحهم ثلاثة أيام كاملة .

ولقد كان بإمكانها أن تقضى أيامها بين عشائها البدو

(١) لعل عند الاعوام هفوة مطبعية في النص الافرنجى

(م . س . ك .)

غير أنها كانت تكمم بين جوانحها منذ عهد طويل ؛
شوقها لزيارة الاراضي المقدسة . فاستأذنت الشيخ رباح بن
شعلان ، حامدة له فضله . وقد خنقتها العبرات . وقد أشارت
في يومياتها بعدئذ ، وهي بأئسة منبوذة في لندن ، تذكر
الاشهر الرعدة لذلك العهد المنصرم : « ان المرء ليجدن في
يوم واحد بين القبائل البادية ، أصدقاء أوفياء عدة ، ما لن
يجده في قرن في اوربه المتحضرة ، حيث يمكث المرء السنوات
العديدة ، دون أن يتعرف بجاره . »

وقفلت ماريه ترازيه عائدة الى بغداد ، حيث قيض لها
أن تنضم الى قافلة تطلب الشام . بينها خمسة عشرة الف جمل
وخمسة آلاف مسافر . وقد كان لهذا الجهم مسير ستين يوماً
لادراك تدمر ، الحلية الملكية من الحجارة البالية ، في قلب
الصحراء السورية . فاضطرت مارية ترازية أن تستقي من
الماء الآسن في الزوايا القذرة . وشعرت بالحلمى تتغلغل فيها
ساعة بعد أخرى . فرجت رفقاء السفر أن يودعوها الثرى ،
إذا ما أدركوا تدمر ، ويخطوا على مشواها هذه العبارة :

« هنا تستريح فتاة البؤس ! » ولكنها أبليت من مرضها ،
وولجت دمشق ، المدينة الكاملة « السعيدة ثلاثاً » التأهبة
بقصورها الوردية ، وبساتينها المائجة ، كأنها زهرة أينعت
بأعجوبة بين فجوات الرمال . وهناك زارت المسجد الأموي ،
متخفية بخمار ولباس المسامات . واقتضحت ، ولكنها أفلتت
من الذبح . ثم طافت لبنان ، وزارت أدياره المشيدة كأوكار
النسور ، وقراه الجامعة على شعاف البطاح .

ونزلت مارية ترازية في ضيافة سيد ماروني . واتفق في
ليلة ، أن وجب الغرفة وقت العشاء ، فتى يقارب الخامسة
والعشرين من العمر ، طويل القامة ، ممشوق القوام ،
مفتول العضل . وفي الوقت ذاته بادي الادب ، فاخر اللباس ،
يطرح الى الخلف فراء موهماً بالذهب ، مبطناً بالبرفير ، غير ان
حياه التي الرزين ينضح أسي قانطاً . وانقطع جبل الحديث
لدى مقدمه ، واكتسى الندماء حلة من العفاف والانس
معاً . وعندما استوضحت مارية ترازية ، مضيغها عنه . روى
لها : — ان هذا الفتى كان يقود بالأمس شقيقته الى زحلة ،

لتزف الى أحد موارنتها. واذ انتصفا الطريق ، وقفنا لراحة
جواديهما. فمرّ بهما سيد متوال ، يتبعه بعض الحشم . غير
أن هذا ما كاد يامح محيا المسيحية السافرة . حتى وقف
جأة . أما النظرة الواحدة كفيلة في الشرق أن تفك مطاوى
الرغبة وتنبت الحب ؟ وعليه أمر أتباعه أن يعتصبوا الفتاة.
ولكن الماروني حذر المسعى ، وقد أبصر التثام الفرسان ،
وبنظرة واحدة جلى الموقف تماما ، فقد قطع عليهما خط
الرجعة . ووراءه المسيل . فشهرا للحال مسدسه . وقتل
أخته . ثم هجم على المتاولة الدهشين ، وألعب بينهم خنجره
ورمحه كالمأخوذ ، حتى أدرك القرية . ولكن منذ ذلك الحين
ركبه اليأس . فقد كان يحب أخته حباً كالعبادة . غير أن
أصدقاءه حيوا فيه هذا القتل الأخرى الباسل . وأهدوا
اليه مشاحاً حريياً . كان يرديه منتفضاً .

وألحت احدى رئيسات الاديار في لبنان على مارية
توازية باداء زيارة الى احدى أميرات آل شهاب . تمت بنسب
بعيد الى الأمير بشير . وتقيم في قرية شمالان على مقربة من

بيروت ، وباستطاعتها حمايتها في السفر لما لها من النفوذ .
وبالفعل عرجت مارية ترازية على شمالان ، حيث زارت
الست حدوش ^(١) ، رييسة الأمير ، ومن ثم أقلمت من
بيروت الى يافا فالى القدس ، مدينة الرغائب القدسية . ولم
تكذ تحط بها رحلها . حتى حل طاعون اجبرها على مغادرة
فلسطين حالاً ، فسافرت الى مصر ، فتركيا ، وذلك مما حال
دون زيارتها القبر المقدس . حتى العام التالي : ١٨٢٦ . فصرفت
أعياد الفصح في القدس المكتظة بوفود الحجاج الغرباء من
مصريين ، وكلدان ، وأرمن ، وفرس ، وروس ، وهنود ،
والبلدة تترجج من طرق عبادة الروم الصاخبة المصمة ، وهم
يتدافعون نحو النار الجديدة .

وعند إياب مارية ترازية ، من جولة في الجليل ، وجدت

كتاباً من أمير الدرروز ، وملك الجبل ، يقول فيه :-

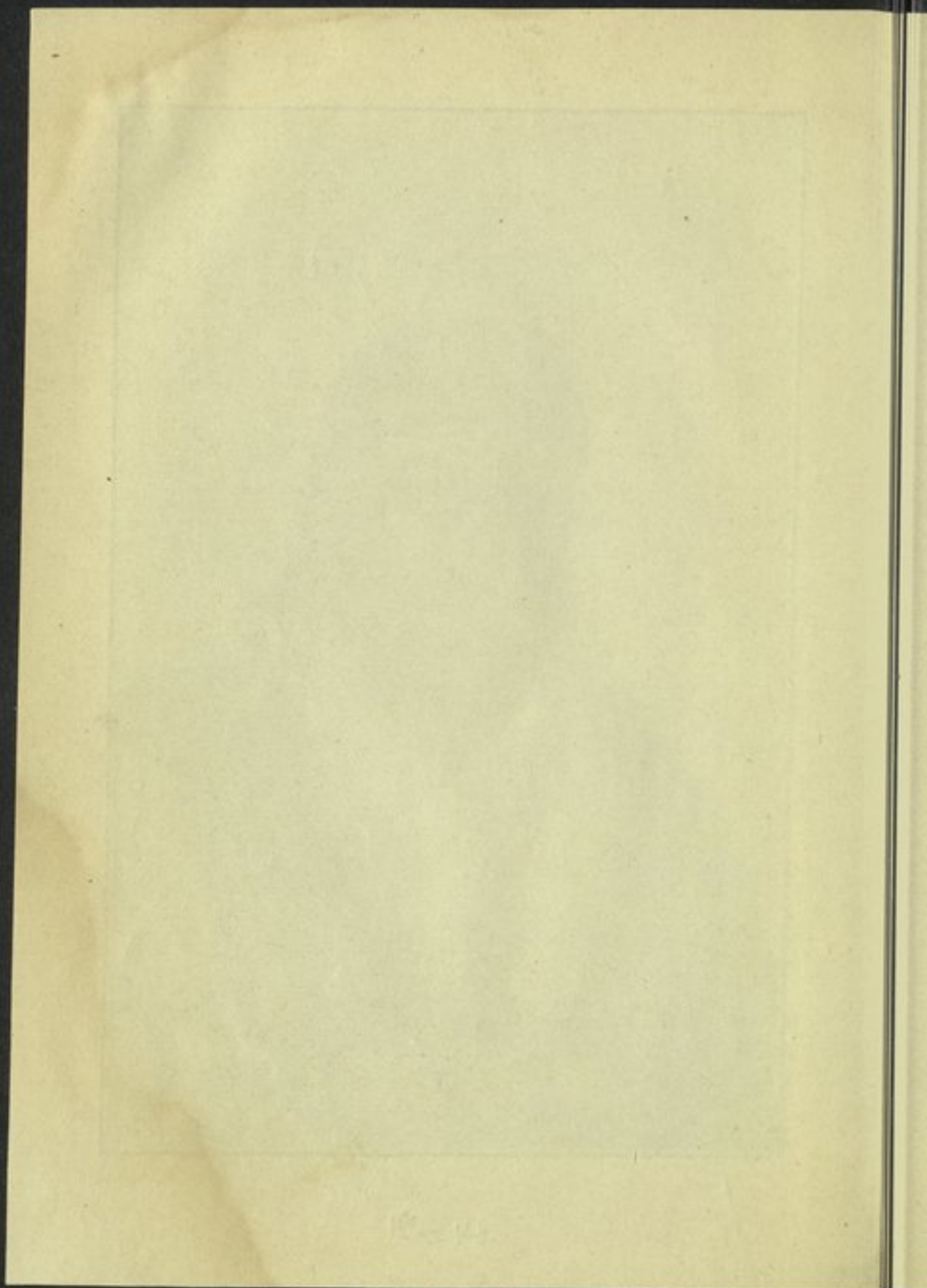
«... عامنا بحاولك ديارنا ، والمصائب التي نزلت بساحة

(١) لم نسمع قبلا بمثل هذا الاسم (Hadouch) ولا نعرف عن نسبة
الامير هذه شيئاً . ولعل اسمها : خدوش ، أو حتوش ، أو حنوش . وهي
أسماء كانت سارية بين المسلمين والنصارى . (م . س . ك .)

عائلتك المنكودة ، وبعمك الجليل النبيل مار باسيلوس
الاسمر ، رئيس أساقفة ديار بكر . وقد خبرنا أيضاً عن
نيتك في اعتزال العالم ، والاستكاثرة الى دير في جبالنا ،
وصرف أيامك في أراضيها . غير أننا نأمل أن نحظى
باكرامك في قصرنا ، ونأخذ على أنفسنا عهداً ، بآتمام
كل الاجراءات اللازمة لانجاز رغباتك . وكيفما كان الحال ،
فإننا نلتزم اليك الحضور الى بيت الدين رأساً ، فإن ابنتنا
الست حدوش هنا تهيم بلقياك . وقد رجتينا أن نكتب اليك
في هذا المعنى ، لندعوك اليها ، آمليين عدم ترددك في
القبول . . .»
بشير

فأجابته مارية ترازية دون تأخير بالايجاب .







الأمير بشير



الأمير بشير

ليست عكا، وصيدا، ودير القمر سوى مشاهد عابرة.
ولكن ها هو ذا في أقصى الوادي قصر الأمير شامخاً على
تل، يرصد المسافرين على منعطفات الطريق. وقد ذهلت
الأميرة البابلية، حتى خفت عدو جوادها. فان مشهد
بيت الدين كباقة ورد، إذ هنالك طاقات ناصعة البياض،
وعواميد تزهو على الورود، وسرور يرتفع كلما ذن، وقباب
تحتفي بين الزهور، وحدائق من الرمان، ورياض تشذو
عبيراً عطراً:

وتقدم المسافرة طليعة من الحرس الفخم، وأوصلها إلى
باب سري، وقادها إلى ساحة ذات نافورات بديعة، حيث
(٤) — أميرة بابلية

كان بانتظارها جوار غسلن رجلها ويديها ووجهها .
وتسلمتها فتاتان تضمخانها بالعطور ، بينما كانت أخرى
تبسط فوقها فوطة ، تحول دون تلاشي دخان البخور . ثم
فتيات أخريات ينضحنها بماء الورد . ولما فتحت مارية ترازية
عينها شاهدت نفسها بمفردها ، وقد اختفت الاماء
الجركسيات ، تراكات لها على طاولة قريبة القهوة والترجيلة ؛
وكان ظل الايوان الظليل ، وعبير الحديقة الحارة ، وأغاريد
الطيور ، ونغمات الفسقيات ، وكدف الخيل على بلاط
الساحات الداخلية يغرى بالنوم . ولما انتهت من رقادها ،
الفت ذاتها في حضرة أمير الدروز ، وزوجته الاميرة
حسنى جهان .

كان البشير من أسرة شهاب القديرة ، نهض فتياً
بأعباء حكم أربعين حولاً . ويستشف من خلال هذا المحيا
- الثابت الجنان ربما طوعاً - آثار الشباب العاصف ، في
ظل الباشا الجزار ، والحروب المتواصلة ، والدسائس البارعة ،
والمنافى القاسية . وإذ يدخل هذا الكهل ، المزدان كأحدى

السلطانات ، يخال للمرء أنه معه تحيا صفحة كاملة من التاريخ .
فيذكر حصار بوناپورت عكا ، وحنق الجزائر لحياذ البشير ،
ثم اقلع أمير الدروز الفجائي على سفينة السر سدننى سميت :
الخطوات الاولى نحو المنفى الذى كرره عام ١٨٢٠ م . فأراً
من وجه مطالبات عبد الله ، باشا عكا ، المالية . ثم يذكر
الحرب التى استعرت بين باشا عكا وباشا دمشق ، وتأيد
بشير لعبد الله ، مما أثار عليه نقمة الامبراطورية التركية .
فداخلات الباب ، وحصار أقوى الجيوش لعكا . فناداة
الشيخ بشير جنبلاط ، بالأمر عباس شهاب ، حاكماً على
البنان .

ولم تكن قد مضت بعد أربعة أعوام على ذلك العهد ،
الذى كان البشير فيه مطروداً ، مهجوراً ، مزعزعاً ، فى
اجارة محمد على . وماذا كان يحدث إذ ذاك فى قصر شبرا ؟
ان الخديوى ، كسكل الفراغة ، قد خلبت سوريا الساحرة
البه . فلذا أحل أمير الدروز أعز منزلة ، ولا مرأ انه سهر
غوره بفطنته ليعلم احتمال تكوين جيش من اللبنانيين ،

مدعياً استخدامه للحملة على بلاد اليونان تحت امره ابراهيم
باشا، ثم من المحتمل ان لزم الأمر، استنجاهه في اكتساح
الشاطيء السورى .

وتدخل محمد على، وسيط خير، فطمأن عبد الله. وسعى
لدى الباب الذى وجد أن العفو والاعضاء الوقتى، هو خير
سياسة يلجأ اليها. وبذا آب البشير الى لبنان؛ وهو المتمرن
على العودة من المنافى. فكانت حركة القمع مروعة. ففي
العام السابق أيدت دروز الشيخ بشير الجنبلاط فى المختارة،
وأهلك كبيرهم، والقيت جثته للكلاب. وبالامس أنهم
بعض أفراد آل شهاب فقتلوا .

وظل الامير قوياً جليلاً، وعلى سيمائه علائم النبيل
العظيم. فتحت عمامته الموصلية، المزدانة بالزهور، والمطرزة
باخيط الذهبية، كانت عيناه الخالكتان تتحركان على
الدوام، ينبعث منهما الشرر، وتتطوران بين آن لآخر بين
القسوة واخيلاء والعذوبة الفتانة. وكانت لحيته كثة فضية
تدلى حتى وسطه. يلبس كبراناً مقصباً، وشروالاً قرمزياً.

مكفوفاً بأطلس زمردى الخضرة . ويتمنطق بشال فارسى ،
أزج فيه خنجراً ، قرابه من الذهب الخالص ، المغشى بالحجارة
الكريمة . وكانت يده البيضاء الصغيرة ، تمر بين حين وآخر
على مقبضه ، حيث تلمع جوهره ضخمة الحجم جداً ، تقدر
بثمان مملكة .

وكان صوته فى الحديث عميقاً مرناً ، لا ينسأ سامعه ،
صلصالاً حينما يدعو للحشد فى مصابح الهيجاء . وشجياً
جذاباً للافتدة الشدى حذراً .

ثم قال بشير بعذوبة : - ان هذا المنزل منزلك ،
ورغباتك فيه أوامر .

واستقصى البحث عن نياتها . فاذا هى تسعى لدخول
الدير . ألا كيف يصير ذلك ، ويبت الدين فى الوجود ؟
وعليه فستجد الاميرة حسنى جهان خدناً تؤانسها ، من
مرتبها ومن دينها ، وستجد مارية فى ذات الوقت ، تحت
سقفه مأوى أكثر سهولة لممارسة الفضائل المسيحية ، مما
تناه فى صومعة . فنزلت عند ذلك ، وقبلت أن تكن العشيبة

الاولى . وصرفت بذلك ست سنوات في بيت الدين ؛ ست سنوات كانت في اثنائها تكتب يومياتها : صورة ثمينة فكحة حياة السراى في مطلع القرن التاسع عشر .
كانت حسنى جهان ، الحليمة الثانية للأ مير ، وهى فتاة شركسية المنبت ، حديثة السن جداً ، على حسن عظيم ، ابتيعت في أسواق الاستانة ، مع اماء آخر . واختارها البشير من ينهن ، لتكون رفيقة حياته ، بعد أن لقنها مبادئ الديانة المسيحية ، ونالت العماد . وبما انها تربت تربية شرقية ، فلم تكن تحسن من القراءة ولا من الكتابة شيئاً ، ولا بإمكانها أيضاً أن تتابع أطراف الحديث بالعربية ؛ فكان أن يقع حمل المراسلات على عاتق مارية ترازية ؛ غير انها كانت على جوانب عدة ، من جاذبية ، وغرائز ، ووداد ، وذات شمائل تفيض دماثة . أدت بعشيرتها الى التعلق بها بكاييتها .



في القصر الجبلي

كل شيء هادىء في بيت الدين .. لا ، فهناك فرد
يتحرك . شبح يحترق الرواقات الخالية المظلمة ، وللهنهار بعد
ساعتان ... هاهوذا الامير بشير يلج ايواناً صغيراً ،
بالقرب من درج القصر . ويجلس على المخذات المخملة برهة ،
شارد البصر ، يدخن أنبوبة الطويلة التي لا تفارقه لحظة ..
تمثالا جامداً يجلب الرعب ، وعن جانبيه عبدان أسودان
ينتظران أوامره .

وإذا ما أشرقت الغزاة ، انتعشت الحياة في الحريم .
فالسواس يذهبون الى المواخير ، واخدم يمشون حاملين
أجاجين الماء العذب . فيؤدى الامير وزوجه صلوات
الصبح . وفي الاعياد يقيم أحد الكهنة القداس . ويقدم

طعام الإفطار على احدى الشرفات المطلة على الوادى ،
الشديد الاخضرار فى النور المشرق .

وبعدئذ ينتقل البشير الى قاعة المشورة ، حيث يحتاط
به عدد عديد من كتبتته ، وكتمة أسراره ، ومما ليكه
البيض والسود . فيفصل فى مشاكل الجبل ، بينما يلتئم
حوله جمع غفير منمق من الموارد ، الدروز ، الاتراك ،
المتاوله ، والاغريق . وذكرت مارية ترازية : « ان يده
الوالدية ، كانت متأهبة دواماً ، لبذل العدل بين الجميع
على السواء » .

وعند الظهيرة يدخل الخدم القاعة حيث الامير ،
ويكسحون مجلسه . ثم ينصبون على الارض فوطه مزركشة ،
بالاف الرسوم الملونة . ويمدّون على هذا السماط الفجائى ،
كراسى (اسكملات) تعلو نصف متر عن الارض ،
يحملونها أطباق النحاس الكبيرة المستديرة ، وعلى الجوانب
الأربعة تترام جبال من رفاق الخبز الطرى .
وتتملى الاطباق كالسحر بالصحون الصغيرة ، وبها

طيور مسلوقة ، محاشي كثيفة لزجة ، زيتون اسود ، اسماك
مغمورة بالخل ، خس رطب ، فستق مملح ، امعاء المواشي
مشوية متوبلة بالتوابل ، انساء لحم الحملان ، مزرجة بشحم
الذيل ، جبن تشدو منه رائحة حشائش جبل الكرميل ،
وكرات اللبنة السمراء ، وعلى الطاولة كل الالوان وكل
الروائح — من الدراج والحوامض ، والمقبلات ، والدسائم ،
والمقبلات بالخل ، يتوسطها طبق عظيم من الرز المفلفل (١) ..
ثم توزع الملاعق الخشبية ، كبيرة مسطحة تعرفل
المآكل ، يديرها المؤاكون من طبق لآخر ، فتخط
وراءها ذيولاً من الزيت والمرقة . وتقدم عندئذ الشواء
والسلطة ، مكان النقولات .

وعند ما يكتفى الامير يؤذن ، فيقدم له طشت وابر يق
من النحاس ، لان الغسل محتم ، وقد ولجت يده الشواء ،
يقتطع النساء ، التي اكها ، والتي قدمها مجاللة الى كبار
ضيوفه . وبعد ذلك تدار الحلوى الحمراء ، والخضراء ،

(١) اين الكبة باصاح ، واين عشرات المعجنات ايضاً؟ (م. س. ك.)

والفواكه الفريضة واجافة ، كلز عروز البرتقالى والموز
الضخم الكثير العصير ، والمشمش الدمشق ، وحساء التمر ،
وطلم قر الدين ، والشمام الصفدى ، والليمون الانطاكى
الحلو ، وأصناف الفطائر المملأى بالسكر والعسل والسمن ،
واللوز ، ونبات « رعى الحمام » والورود . اما الرز باللبن ،
فهو كالشواء من ضروريات المائدة . ولكن ليس من أثر
لأى صنف من النبيذ اللبنانى ، الذهبى اللون ، الحلو ،
ذو الرائحة البخورية ، والذي يترك فى القصر عطر الزهور ،
بل هنالك كراز ماء صاف ، يزرثق منه الضيوف . . . وبعد
ذلك يعاد غسل الاصابع ، ويطاف بالقهوة المعطرة فى
فناجينها الدقيقة مع الترجيلة . وبعد ربع ساعة من الزمن ،
ينصرف أبناء الامير وضيوفه .

وتكون الاميرة قد تناولت فى مقاصيرها ، غذاء مماثلا
لا تحوطه الكآبة قط . فان لها ايضاً ، وصائفها ، وقربياتها ،
وضيفانها ، من أفراد اسرة شهاب ، وعقائل كبار الموظفين
فى بيروت ودمشق ، والدرزيات النبيلات اللآنى يأتين للزيارة .

على الدوام . فاذا انتهين من الغذاء ، توسدن على الشرف ،
ويدهن فناجين القهوة ، وقصبات التدخين وترقص لديهن
امة سوداء « فكهة » رقصات ابتكارية فذة .
ان ما بعد الظهر رائق ، يكاد يكون على وتيرة واحدة .
غير ان مارية ترازية ، ذات الروح المبتكر ، كانت
تسلى في مسخرة الحاضرات ، فقد تواطأت ذات يوم ،
هي والاميرة حسنى جهان ، فاستعارت ايهى ملابس
الامير : زياً من الجوخ الموه بالذهب ، سروالاً فضفاضاً ،
من الاطلس الوردى ، عمامة موصلية ناعمة ، ذات ازاهير
ملونة ، وشالاً فارسياً ثميناً جداً ، فاكتسبت بذلك هيئة
حربية ، بل لم تنس ان تزرع في نطاقها خنجرأ . ثم وثبت
في القاعة ، حيث احتشدت الأميرة وضيفانها . ومارأت
الدرزيات والتركيات الجميلات رجلاً ، حتى نهضن في جلبة ،
يسدلن اخرهن على عجل مولولات . بينما حسنى جهان تكاد
تجن طرباً . فلم يضطرب الفتى المتمثل ، لهذا النجاح ، بل
استوى الى جانب الأميرة الشهابية يكيل لها القبل .

فازداد الصخب ، وادى الى دخول جارية سوداء مع بعض
الاماء . لاستيضاح كنه الضجيج ، وتسمرت هذه دهشة
أمام مارية ترازية ، اذ لم تتبينها ايضاً . ثم ولت تستنجد
حارس الحرم ، وكان هذا كهلا قوياً ، طوله ستة أقدام .
فيجزم على الدخيل شاهراً السيف ، وقبض على طوقه ،
وهزه بعنف ، قائلاً : « من سمح لك أيها الكاب ، بحرق
الحرم المقدس في القصر . هيا تكلم . أجب ! »

وانى المنكودة مارية ترازية بالجواب ، وهي تكاد
تخنق في قبضة الكهل اللعينة . فناضلت عبثاً كي تسترد
تنفسها ، في حين كانت الاميرة حسنى جهان ، تشرق ضحكا
جنونياً ، مستغربة فيه دون التلفظ . وكان الحارس النكد
يزداد رجاً للباس الامير المنحوس ، الى ان تمكنت الاميرة ،
وقد شهدت الى أين ستجر العواقب ، بارسال كلمتين . فهبدأ
روع السيدات ، وشار لنها في الضحك .

ولم تكن هذه الواقعة ، لتشفى مارية ترازية ، من
هوس التنكر . فالليالى كانت تصرف بين الاحاجي ،

وتدبير مناظر حية ، ومشاهد مستتقة من الحياة العادية ،
مما ندعوه في اوروبا « عرضاً » (Revue) وكانت مارية ترازية
في آن واحد: المؤلف ، منظم المشاهد ، الممثل ، والمزخرف .
والقطعة التمثيلية التي حازت نجاحاً باهراً ، هي زيارة ملكة
سبأ سليمان . فكانت مارية ترازية تمثل فيها دور الملك
الحكيم للغاية . وقد تسربت لهذا المشهد باحدى ملابس
الامير الاحتفالية . ولم يهدى روعها ، حتى أخطر حراس
الحريم ، أن يصموا مسامعهم دون كل شيء .

وكانت الاميرة حسنى جهان ، اسحر ملكات سبأ .
وقد اتشحت بزى الدرزيات ، بفخامته البربرية . ففوق
قيص اصفر باهت ، وشروال مقصب بخيوط الفضة ،
يهبط عليه ثوب من القطيفة القرمزية ، مرقم بالمعدن الثمين ،
مهذب بالذهب ، مبطن بحريز فرفار . أما رأسها فيزينه
طرطور من الذهب الرقيق ، مرصع بالجواهر . وهو
اللباس الوطنى ، ويتألف من مخروط مجوف قطاره بضعة
أقتر ، وطوله متراً تقريباً . ثم الطرحة الشفافة التي تثبت

الطرطور ، مغطاة بشبكة لآلىء وقطع ذهبية . وعلى
الصدغين تهذب صفيحتان مزوقتان بالياقوت الاحمر ،
تتهيان بشريطين يعقدان تحت الذقن ، وفي تضاعيف
الشعر خيوط لؤلؤية ، وشراشير الحرير والعقيق تهدل
في صنفاً عديدة حتى الخصر ، وبين كل شرشرة وأخرى ،
سلسلة ذهبية تدرء بالريالات البندقية . وان ازديان الرأس
بالشبايك والدوالى ، يذكر المرء بزينة الرأس في عهد النهضة
الايطالية .

ويزهو الجبين بعقاص من ستين ديناراً ، يتلألأ في
جوفها « الناطور » وهو جوهرة فريدة . قومها جواهره
الارمن بأكثر من أربعائة وخمسين الف غرش . كانت
تخص فيما مضى الشيخ بشير الجنبلاط المنكود الحظ -
وهذه الحلية هي « الصافى » اولى زينات المرأة المتروجة ،
التي لا تفارقها أبداً برغم الخراب والحداد - ثم ازهار من
الحجارة الكريمة ، وباقات من الياسمين والزنبق الطبيعيين .
خفية من الالماس ذى الخمس الصفوف ، وعبرة قلائد من

اللالىء ، وقرطان برسم الشمس ، يتألف كل شعاع من
لؤلؤة ضخمة . وهذان ثقيلان جداً ، حتى وجب ضمهما الى
سلسلتين شدتا الى القفا . فأساور من الذهب الخالص ،
وخواتم من الزمرد تملأ الاصابع . . . وقد أعلنت مارية
ترازية « انه لو حوى نموذجها نصف هذا الافتنان ،
لأدى دون شك بالملك الفائق الحكمة ، الى فقدان حكمته ،
أثناء تأمله محياها الخليق بالسجود . . . »

ياله مشهداً فائقاً! . . . ان المرزح يقوم فى احدى
قاعات الحرمك الكبيرة ، فالجدران موشاة بالقاشانى
الازرق ، والمرمر الوردى والاسود ؛ فالطنافس الزاهية
الالوان ، وأبسطة تبريز وبخارى . وقد نصبت عليها سدة .
وجلس سليمان على عرشه تحوطه حاشيته . يترقب مقدم
الاجنبية الحسناء . . . ودخلت الملكة ، فحاشيتها ، فمامها
يحملن الهدايا . وكانت رؤوس النساء السفح ، تنوء رازحة
بالسلاسل والحلى ، كما ينوء الورد الذابل فى قيظ النهار
الفارط .

وجلست المتفرجات ملتئمات الشمل، مواجهاً المشهد،
يدخن الترجيلة، على المرافق الحربية، كانهن باقة زهر
زاهية، شتت شعثاً على الحضيض. فالعائم المدبجة، والقنايز
المطرزة بالابريز، والالوان الحمر غير القانية والحلل،
والأخمرة الصفرة الناصلة، والارجوانية القانئة، والزرقاء
السماوية. وعدد عديد من الأهداب تنتفض عليها راعشات
وعاكسات فضية... وأخيراً جوارى الحريم السود،
بملايسهن البرش، يتدافعن الرئي، من خلف القناطر المطلة
على الباحة. ومن ثم تشهد من التوافد الحدائق الزاهرة،
تشف عن ظهور لبنان الخضر، ويظهر البحر في أقصى
الوادي....

وحوت هدايا بلقيس حمامةً وقرداً. وحاز الأخير
بمفرده استحساناً فاق الممثلين كلهم جمعاً. إذ تقدم نحو
العرش في شيء من الوجل، وركع، وقبل الارض. ثم
انتصب قفراً. وأدنى يده من فيه وجبينه وقلبه. وإذ ذلك
بلغت حماسة المشاهدات أشدها. وبذل حارس الحريم

قصارى جهده ، لتنفيذ الاوامر الصادرة له . . . وقد أصاب
الامير بشير في قوله : - ان بيت الدين ليس منسكاً . . .
ثم هنالك ملاحه أخرى ، كالشطرنج ، ولعبة الخواتم ،
والتنزه في الحدائق العجيبة يحترقها خريز المياه . . .
وكانت عادة الأمير بشير أن يلاقى الاميرة ، عند
المساء ، على أحد الرواشن المظلمة بالدوالي ، المحوطة باقفاص
الطيور . فيجلس البشير على كرسي ، انجليزي الصنع ، أهده
اليه الليدى المحبولة استرستانهب - التي بعد أن ذرعت
الشرق طولاً وعرضاً ، نصبت خيمتها فوق رابية منفردة
من لبنان - فيدخن في هدوء ، ويدبر طرفه من أن لاخر
يتفسر المحيطين به ؛ ويخيل لمازية ترازية انه يستعيد متحسراً
ذكرى جرائمه السالفة : ولكنه يقيناً يتصفح مفاوضات
شبرا ، ويفكر في مقاصد محمد علي .





لقاء اللیدی استرستانهب

وفي ذلك الحين كان بين ضيفان الاميرة حسنى جهان ،
سيدة درزية جلييلة القدر ، اصطفت مارية ترازية ،
وعرضت عليها مراراً الضيافة ، وكى تبرهن لهذه على عدم
ضغنها لرفضها المتواتر ، بعثت اليها بسلتى فواكه . ولسوء
الحظ راق للخادم حامل الهدية ، أن يتذوق برتقالة ، ويأكل
عنقوداً من العنب المسكى ، ويلوك تينة ، حتى اذا ما وصل
بيت الدين كانت السلطان قد خوتا ، وفي حالة يرثى لها ،
الزمته الفراش عشرة أيام . وعادت السيدة صاحبة الخادم
« النبأى » ، فجذدت دعوتها . فأجابها مارية ترازية من
باب المجاملة وحب الاستطلاع . وقدمت قصرها القائم على
مسافة ساعات قليلة من دير القمر .

في ردهة نخمة الرياش ، تطل على حديقة تشرف على البحر ، يتوسطها بساط عجمي ، يستمد من أزهار الربيع ، أشد ألوانها خفوقاً ، قعد شيخ درزي وقور ابيض اللحية - ادركت مارية ترازية من زى عمامته انخاص انها في حضرة أحد العقال المتضلعين من الاسرار - وعلى جانبه سيدعظيم جليل ، يكتسى ثوباً زعفراني اللون ، بخطوط قرمزية ، وسلطة مطرزة مقصبة ، تجمعها على صدره حلية من الذهب الرقيق ، يدخن في جلسته الشرقية ، ويمر يميناه على قصبه غليونه تنسل منه سحائب زرق ، ويعدد يسراه سبخته العنبرية . وكان وجهه غريب الشحوب ، جامداً جميلاً . وقد حذرت مارية ترازية من وراء اوضاع خفية ، انها تواجه امرأة برغم المظهر واللباس الرجالي .

وكان قد نهض أثناء ذلك الوقت ، لاستقبالها ، اندرزي والغريبة . وعددت صديقة مارية ترازية ، المجاملات ، في تلك اللغة الشعرية ، حيث ترى على الافواه من تلقاء ذاتها: الصور والمشابهات . وما لبثت الاميرة البابية ان

وصلت حبل الحديث ، مع العاقل . غير أنها تضايقت اذ
شعرت بنظرات المرأة ذات السبعة ، الثاقبة ، تفحصها
وتجوبها ، وتحرقها وتقيسها ، وتسجرها . ثم مالت هذه
نحوها قائلة للفور بالعربية ، في سهولة عظيمة ولباقه في
الالفاظ ، وفي لهجة أجنبية واضحة :

اذن أنت قادمة من بلدان الكادان . حيث نبت
العلم ، وادركت علوم التنجيم والفلك والسحر أقصى درجات
الكمال

دهشت مارية ترازية لهذا الاجهار ، ولم تحرجواً .
فسألتها السيدة ، أهي متعمقة في علم الفلك . فتمتمت ،
ان الامير عبد الله الاسمر لم يكن مغرمًا بهذا العلم ، وانه قد
ردعها عن التنقيب عن كشف المستقبل الذي هو لله وحده .
فلاحت اذ ذاك على سماء مخاطبتها سحابة اخفاق طفيفة .
واجهرت : -

- انني حبست نفسي على درس صناعة النجوم ،
وادركت فيها وطراً عظيماً . ولما شاهدتك منذ هنيهة ؛

تحادثين صديقي الجليل . اكتشفت دون غناء ، النجم الذي
ولدت تحته . ويكفيني أن اخض بانتباه ، عيون وجبين المرء
حتى اثبت ، دون مخافة الزل ، النجم الذي يتحكم في مصيره .
ونجمك أنت : عطارد ...

— انك على صواب ، فان منجماً كالدانيآ ، وسليمان
الحكيم ، العالم الدمشقي الكبير ، ذكر الى هذا بالتمام . .
فصاحت الساحرة الحسناء دهشة ، وقد اشرق حياها :
اننى أعرفه تمام المعرفة ، ولم يشهد العالم ، بشراً أحذق
منه فى هذا الفن الالهى . فانه لم يرنى قط ، ولكن أحد
اصدقائى وصف له وجهى ، فأبان مزايى وعثراتى ، وأهليتى
ونزغائى ، بسداد مدهش ، مبيناً شامة لى فى مكانها المضبوط
وذا كراً الندبة الصغيرة فى كتفى المتأتية عن عملية خراج . .
وكانت ماريه مأخوذة صامتة صمت الاعجاب ،
فواصلت المنجمة حديثها : —

لقد برزنا جميعاً الى هذه الدنيا ، تحت نجم ، فخطنا معلق
بطبيعته المؤتية أو المناجزة ، فلم يتفق لفرد كره آخر ، لى

اللقاء الاول؟ انه أمر في غاية البساطة، فأن نجميمهما متضادين..
فالذى ولد مثلاً تحت علامة الحمل، يفر من وجه ذلك المولود:
تحت علامة النمر... وهكذا كتب!...

وبينما كانت هذه المرأة البيضاء العظيمة تتكلم،
كان يخيل أن سيلا جارفاً، لا يرحم، يتتبع المعارضات
والاستصوابات. وأن لاشيء يستطيع صدّه... وأجبر
الحضور المحاضرون، على استماع محاضرة متقنة، عن السماء،
والسيارات، والنجوم. ودار البحث عن الميثولوجيا
واللاهوت، والشعور البعدى (الهتف Télépathie)
والارواح العلوية، والملائكة والأبالسة. وبعد برهة صمت
اغتنمها مارية ترازية، فصرحت عن شوقها لزيارة أوروبا،
نور العالم، وموطن المدينة، حيث تسطع الفضائل المسيحية،
سطوعاً نقيماً، وحيث لا يمكن أن يكون القوم إلا اناساً
صالحين، عادلين، كرماء...

ويحاً لها، ماذا جنت؟.. فأن المحاضرة التي لا ينضب
لها معين، استطردت بداهة بشقشقة مستجدة في موضوع:

يظهر أنها تدربت عليه . وأجابت في قهقهة ، مفرقة أصابعها
الطويلة النحيلة :-

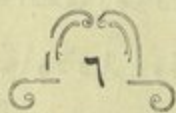
- لقد خدعك ذو مأرب . بلى أن أوربة ، كانت فيما
مضى ، مملكة المسيح ، ومدرسة الفضيلة . أما اليوم فهذا
تاريخ بال ، وخرافة قديمة . فقد غربت شمس أوربة ، ولم
يبق في قلب ابنائها المنحطين ، ذرة شرارة من إيمان الجدود ،
فالورع والعمل قد خلعهما عن عرشهما : الخداع ، الدسائس ،
الأنانية الشهوانية . والنفاق . فلن تواجهين سوى : الدعارة
والفسق . فامكثي حيث أنت . فأنت تلقين الدين سالماً ،
نقياً من الغايات الشخصية ، يحي القلوب النقية الساذجة .
انى ولدت ونشأت في أوربة ، وتنقلت كثيراً ، وخبرت
أكثر الأوساط الأوروبية . وانك ستندمين ندماً جليلاً ،
يوم تنزحين عن هذه الجبال الوديعة ، نحو صراع وصخب
شعوب الغرب

لو أن صاعقة انقضت عند اقدام مارية ترازيه ، المتخيلة
أوروبا أرض الموعد . لما أذهلتها أشد من هذه . . . غير أن

رغبتها كانت أشجع من خوفها . وقد اضطرت بعدئذ أن تستوعب نبوءة المرأة الغربية : التي يخال أنها عرفت كل البلدان ، وكل القلوب . « وبعد هذا نهضت واستأذنت . وانصرفت في حاشية كبيرة . وكان عند الباب في انتظارها جواد فاره ، يقرض لجامه بفروغ صبر وشموخ . فوضعت قدمها في ركابه ، وقفزت الي السرج كالرجال . ودفعته دفعاً جنونياً ، عدواً بين الجلاميد والمهاو ، تتقدم حشمها ، بهور ومهارة ، يفخر بها المماليك لو أتوها . . . »

ولم تكذب تحتفى عن الابصار ، حتى هرعت مارية ترازية للفور تسائل مضيفتها عن اسم هذه الشخصية اللغيزاء . فكان الجواب : « أنها اللادي استرستانهيب »





عوائد درزية

بعد ذلك عرضت على مارية ترازية صاحبها، زيارة
كاهنة درزية، تقيم على فيج قريب . والنساء (الدرزيات)
يحضرن جميع الطقوس المقامة في « الخلوات » - وهي
معابد صغيرة تقام في أرباض القرى، منصوبة على ذروات
مطلّة على الدروب - وفضلاً عن ذلك فيبنيهن مضطلعات
بالاسرار، ويكن عامة، مسنات عالمت، ويلقبين « بالعاقات ».
وكانت هذه التي قدمت عليها جالسة في الفضاء تستنشق
نسيم المساء، وعلى مقربة منها مهد يتدلى من غصن صنخم،
راقد فيه طفل . وحوالي المكان يسرح في المروج قطع
من الأغنام الدرزية الفريدة، لها من الأليات ما يكون

مآكل شهية ، وتكاد لفرط ربلها وثقلها ، تعوقها عن
المسير ، حتى ان الرعاة ابتدعوا لها لتخفيف حملها ، شبه
زحافة صغيرة ، يعلقونها بالانعام ، وتسند اليها هذه الزائدة
المكتنزة . وبهذه الآلة الفريدة تنتقل هذه من مرعى الى
آخر .

ولم يكن الحديث فتراً - وكانت الدرزية على جانب
عظيم من الحذاقة ، لتتق المسائل المذياة ، كما كانت كذلك ،
وهي ترهق مارية ترازية بلا انقطاع بالاستفهامات . وأعجبت
هذه بتساهل هذا الشعب ، وارساله صغاره الى المدارس
المارونية ، وصلاته في الكنائس والجوامع على السواء ،
حتى يلتبس على فلاحى لبنان الاجابة ، لو سئلوا ، هل الدرروز
نصارى أم مسلمين .

وتركت الامراتان مارية ترازية مع الطفل ؛ فلم تقلت
هذه دقيقة ، بل تناولت ابريقاً وعمدته ، إذ أقرت : « انى
لم أضع فرصة قط ، أن أفعل ذلك ، اذا وجدت غفلة . . . »
. . . إنه عمل صبوى ، غير انه جرى .

وأسعدهما الحظ أن تشهد حفلات قران وما تم درزية
لا تخلو من صبغات محلية ، وصفات فتاة . فالشاب اذا
ما هدف للسادسة عشرة أو السابعة عشرة ، واكتملت
المواثيق ، وعين الصداق ، ذهب مدججاً بسلاحه في طلب
خطيبته . فتدخل هذه مختمرة ، ويتقدم الطالب معيداً
التماسه . وعند ذلك تجيبه : « انى أقبل بك » وهى تمد اليه
بخنجر مخيط فى « كيفية » . وهذا السلاح يستعمل اذا ^{كروية}
زاغت عن صراط الشرف ، أو ارتكبت أمراً اداً . ويلج
السيد ليلة الدخلة ، غرفة الزفاف ، حيث تنتظره العروس
الفتاة ، جامدة كالتثال ، يكسوها مئزر أحمر موشى بالتبر ،
من رأسها الى أخمص قدميها ، فيضع على رأسها الطرطور
والصافى . ويكون الأهل اثناء ذلك الوقت « يرقصون
السلاح » صارخين صراخاً مخيفاً ، ليطردوا أرواح النجس
والعقم .
ولا يتخذ الدرور زوجات ، إلا فيما بينهم ، ومن امرأة
واحدة . غير أن للزوج الحق فى طلاق امرأته ، وهذا فى

غاية السهولة ، إذ يكفيه دون سابق اخطار ، أن يلصق على جدار المنزل ورقة خط عليها ارادته . فاذا رأت أمر خلعهما ، نادى هو بصوت عال : « لقد قرأت مصيرك » . وفي الحال تجهز حوائجها ، وتقفل عائدة الى منزل والدها ، تاركة أولادها . غير ان الخلع نادر بين الدروز . لأن الدرزي لا يمكنه قط أن يستعيد حليلته ؛ ويعاقب على الزناء بالموت . فان أقارب الآثمة ، هم المنفذون . إذ يرسل اليهم الخنجر مجرداً من قرابه ، فيعلمون أن العار قد ركب جيلهم . وينصب مجلس العيال ، ويدعى الزوج ليمين الشهود . وفي حالة تعذر اداء البيّنات ، يكتفى بقسم الزوج . . . ويمكن الرجم ؛ أي مأساة مروعة يمكن للانتقام وللنفور ابتداعها ! . . . ويكون الجلاد ، إما الوالد وإما الاخوة . وليس من حادث رحمة معروفاً . ويكون الطرطور المضرج بالدماء ، علامة للزوج ، ان العدل جرى مجراه .

وحينما ينفق أحد الدروز ، يجتمع ذوو قرابته ، واخوانه ، وجيرانه ، حول الجثة يعددون دون تغرض ما تيه

التي كانوا شهودها . فاذا كانت هذه الانبياء لصالح المتوفى ،
واستقام الاجماع ، انه لم يقتل ، ولم يسرق ، وانه كان عادلاً
شجاعاً ، مضيافاً لأخوانه ، تقمصت روحه جسد أحد
السادات ؛ ويرفع العاقل الموجود عقيرته قائلاً : « ليرحمك
القادر على كل شيء » فيردد الحضور هذا الدعاء . أما اذا
كان الحكم عليه ، أو وجد بين الحضور ، ورثة منبوذين
حاقدين - يصمت الحضور صمتاً طويلاً . وتحل الروح في
جسد حمل أو كلب ، غير أن القوم الحذرين ، يأخذون عدتهم
فيكونون مقدماً جمعاً مختاراً البعد مما بهم .^(١)

(١) لم نشر بتعليق ما الى أى عقيدة أو عادة درزية ، لضيق المكان .
فمن شاء شرحاً وافهماً ، فعليه بمراجعة الكتب العديدة المصنفة بالعربية
والافرنجية عن الدروز ، وعند جبهة الخبر اليقين ، وليراجع حتى « بالانكليزية » ،
و « بورون » بالفرنسية . فهما أحدث الكتب وأوقاها .



وجها الامير

كان قسم كامل ، من حدائق بيت الدين ، محبساً على صوافن الأمير ، وبها ما يفوق الخمسين عدداً من الاصائل النجائب المحفوظة الانساب بالتدقيق ، يؤكدون تناسلها من ذرائب سليمان ، تجلجل قيودها في صهيلها .

وكان يلذ لليدى استرستانهوب ، أجسر النساء الضهيئات (الامازونات)^(١) . اللاتي شهدتهن مارية ترازية

(١) الامازونات Amazones ، ويعرفن في العربية بالضهيئات ، نساء مترجلات محاربات ، ذكرن في خرافات الاغريق . كن يسكن شواطئ البحر الاسود ، ويتدثرن بجلود الضواري ، يلتحفن بها من الكتف الايسر تاركانت الايمن عاريا . وهن شديدات البأس والبطش ، مغامرات حتى يقال انهن ملكن اقليم « تساليا » مقر الآلهة ، في بلاد الاغريق . ومددن يد المعونة الى بلدة طراودة ، في الحرب الشهيرة باسمها . وفي الميتولوجيا ، أن هيرا كليس ، رمز القوة الجثمانية ، حاربهن وانتصر عليهن ، ليات بمنطقة ملكتهن الى « اورسته » ملك بلدة « ميسين » ، وبالفعل اسر ملكتهن « هيبوليت » وأزوجها صديقه « تيسا » . م . س . ك .

والتي « تثير تعجب العرب أنفسهم ، أحسن فرسان العالم ،
عندما تعدو دون وجل فوق الشعاف الصخرية ، والروابي
العمودية ، حيث تكفي زيفة واحدة أن تقذفها الى المهواة »
أن تفتقد اصطبل بيت الدين ، وتمكث تدخن نرجيلتها ،
صارفة أويقات بعد الظهر بطولها تفحص فخص خبير :
الاصائل الصهب ، البندقية ، والجلس . وقد جدت ذات
يوم أمام فرس عربية ، بديعة الحسن ، ابتاعها بشير بأربعين
كيساً . تقاسيمها خارقة ، وعنقها دقيق ، ورأسها صغير
مستطيل ، وعرفها متلالي ، وعيناها ثاقبتان ذكيتان ،
كأنهما عينا بشر . فأهداها الامير بكل أناقة لجارته ،
مصحبا إياها بشهادة ثابتة ناطقة بنبل أصلها ، وقدم لها معها
أنا ، تمتسل من تلك التي ركبها المسيح ، يوم دخوله
اورشليم ، غير أنها دون وثيقة تؤيدها .

واعتنى بالفرس أعظم اعتناء ، وبعد اشهر قليلة اخبرت
سيده جون ، الامير ، عن مولد مبرة فذة ، على ظهرها سمرة
وقب كرسم سرج تركي ، واعلنته أنها وقفت هذه الشاذة ،

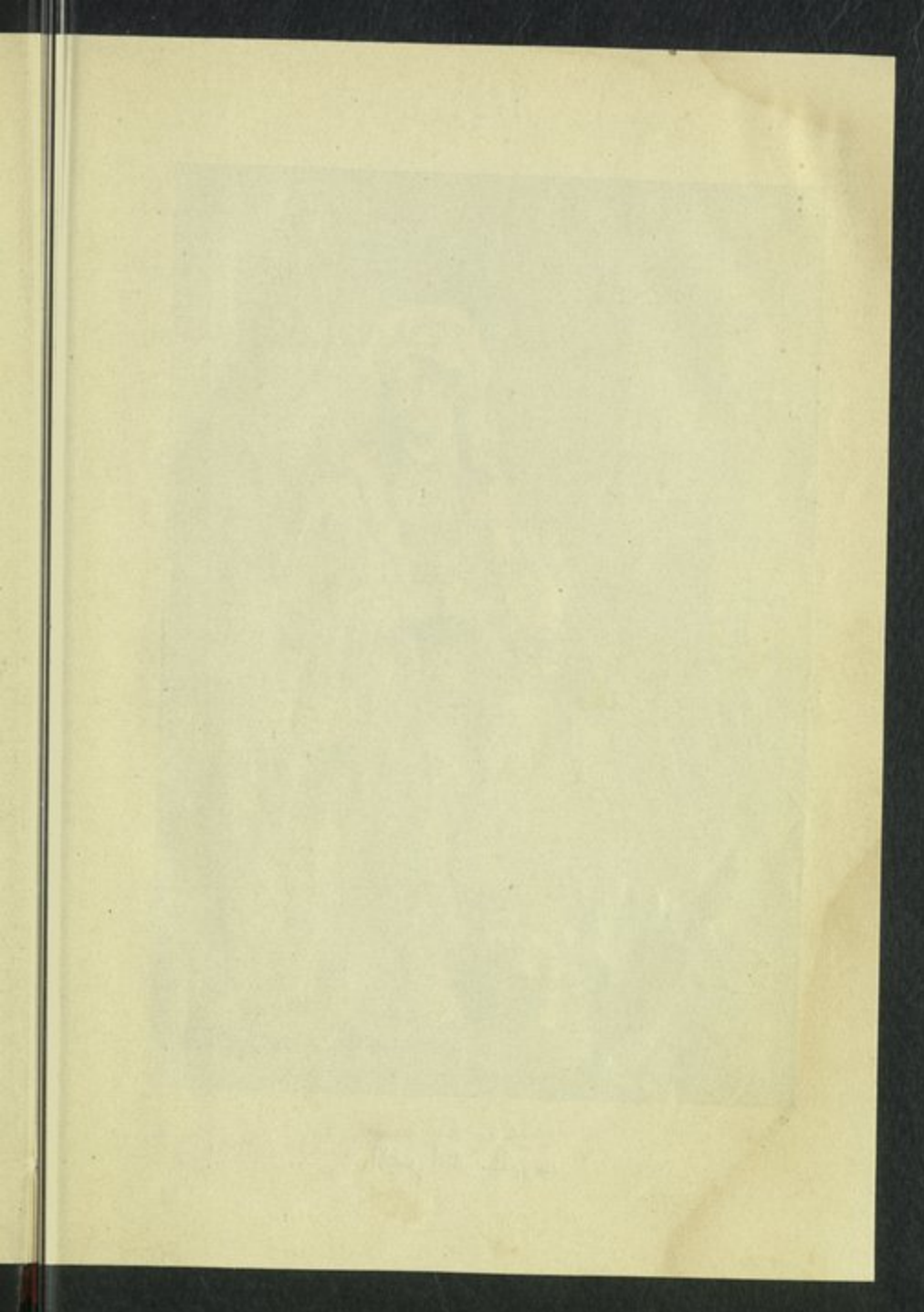
لاستعمال « المسيا »^(١) فقط ، فضحك البشير لهذه الواقعة ،
فقد كان أولى جداً بالانجليزية الهائلة : أن تدير سكان جهدها
وذهنها المبتدع ، نحو المسافر الدينية ، عن أن تصوبه نحو
السائس السياسية ، التي شعر الامير بمذاقها العلقم فيما بعد
ولم تحفظ مارية ترازية ، يا أسفا ، صورة دقيقة تماماً
عن مقابلاتها ، لابنة أخت بت Pitt . فهي قد التقت معها
حقيقة عند الكاهنة الدرزية ، مع أن الليدى استرستانهوب
لم تشر الى اسمها قط في مذكراتها . ولعل تأكيدات
الاميرة البابلية ، ليست سوى مغالاة شرقية محضنة عن
زيارة فريدة ، حين تقول : « اننا تبادلنا الوداد بعدئذ ،
وقضيت ساعات عدّة في رفقها »^(٢) .

(١) « المسيا » هنا هو المسيح المنتظر عند أهل الديانة الموسوية
وليس هو السيد يسوع المسيح لاسمه السجود ، الذي نعتقد به والذي سيأتي
في اليوم الاخير لدينونة العالم ، لالانشاء دولة يهودية ومملكة صهيون .
م . س . ك .

(٢) من المحتمل أن تكون الاميرة ، قد قابلت الليدى ستانهوب
مراراً قليلة . ولا أمر ما أنفكت هذه ذكرها . والله أعلم ! م . س . ك .



الليدى استر ستانوب



إلا أن تنزهات الليدى استرستانهوب فى حدائق بيت الدين ، خطل من البدء . كما ان قصة الفرس المهداة من بشير حديث خرافة . ومن المحتمل أن مارية ترازية ، وقد سكنت القصر فعلا من : ١٨٢٦ الى ١٨٣٢ م ، لم تقابل هنالك قط ساحرة جون ، التى كانت تناضل إذ ذاك الامير . وهذه كلماتها بالخراف : « انها لم تقابله غداة وفاة سليمان باشا » (١٨١٨ م) وقد أشار لويس دموازو Damoiseau ، الملحق ببعثة الميسودى پورت ، لايتباع الجياد العربية ، قبل مقدم الاميرة ، الى وجود الشاذة ، إذ قدم جون ، وأرته الليدى استرستانهوب جيادها . فسجل : « اننى لحظت بنوع خاص مهرة لها عامان من العمر تقريبا ، ظهرها مقعر كسرج تركى ، وخاصرتها غائرتان غورا عميقا . فهذه الشوائب هى فى عينى ميليدى Milady ، كمال . فقد حدثنى أن هذه الفلوه ، تتسلسل من فرع يرتقى الى جياد زرائب سليمان ، وأن هذا النوع نادر الوجود جدا ، ونفيس القدر . واخلاصة

أن أمثال هذه المطية ، لا تستحق أن يحويها غير عظيم ،
من ملوك الارض . وفي نيتها ارسالها الى ملك رومة . . . »
أما من جهة صورة البشير ، حسب رسمته الانجليزية
الهائجة ، والبابلية السليمة الطوية ، فانه كان كقولهم « ذو
وجهين » فأنى نظر اليه ، شوهد ، إما شيطاناً وإما قديساً .
وما لليدى استر ستانهورب ، ومارية ترازية ، قبل كل شيء ،
سوى امرأتين ، ككل النساء ، أى متهورتان ، متأهبتان
للخلط بين الرجال والاعمال . تعاملان بحسب نزعات
العواطف ، اكثر من الفكر ؛ وتعمان قبل المقابلة والحكم .
فاحداهما وقد أعمتها الكراهية ، كان بشير « وحشاً
يثقل رقاب وأقدام الشيوخ بالاعلال ، ويفقأ الاعين ، يجمع
الالسنه ، يدق صدور النساء بالكلابات ، يخذ أنفاسهن بين
أطباق الرصاص ، ينكل بهن بالحديد المحمر ، يشنقهن من
شعورهن . يمزق الرجال ، ويسحق رؤوسهم حتى تنفلق
أصداعهم . واذا اتفق وأفلت والد من برائته ، أحل صواعق
سخيمته على البنين » أما الاخرى ، وقد أعمها عرفان

الجميل فكان « نابوت العهد في الشرق ، يطفو على المياه
العكرة الصخابة ، في وسط التعصب الزنديق »
ان الليدى استر ستانهورب برغم اقامتها على أرض
الامير ، قد ناصبته حرباً ساعة . وهذا ما رمزت اليه مارية
ترازية ، بقولها ، « انهما يعيشان في ظروف ودية » فانها
قضت عشرين حولاً تقاومه ، تسخر به ، مهاجمه ، تحقره ،
تخرق حرمة ، وتقاوم أجناده . وهذه يقيناً أحد أهم
البراهين الدالة على شجاعة ابنة أخت بت ، على مدى
حياتها الباسلة ، وقد تخلى عنها أنسابؤها ، وخالانها ، وجاقتها
الحكومة الانجليزية ، والقناصل في سورية ، وخالها خدمها .
وبما أن حسبا كان عالياً ، وغضبها نافذاً ، ونفوذها عظيماً
في الجبل ، فلقى البشير ، وسعى في قذف هذه الجارة المزعجة
خارج ملكه ، فشر أمراً يمنع تحت طائلة الموت ، خدمة
الانجليزية ، واستولى عنوة على قرية جون ، وحاصر منزلها .
وأرسل القواد لمفاوضتها ، وحاول أن ينفها بواسطة سيافه
حماده ، ذى الصيت المشؤوم فذهبت مساعيه جميعها أدراج الرياح

وفي هذه الآونة ، كانت مارية ترازية ، ترسم من بشير
رسماً زاهراً ، رقيقاً ، ليناً ، شديد العذوية ، وعظيم الحكمة .
وتصور بيت الدين « كدرسة الفضائل المسيحية » ولا
تبخل في البخور والعطور ؛ فهي تطرى دون رزانة ،
كرمه ، وقرار ويسار البلاد اثناء حكمه الطويل المدى .
فتصرخ : « وكان الموارنة . والمتاولة ، والمسامين ، والدروز ،
يعيشون كأخوة » ، وتعتبر صامته على الثورات المتصلة .
الحلقات ، والجرائم التي أدمت الجبل ، وعن جشع الأمير ،
مضرب الأمثال ، في استنزافه لبنان بالضرائب الباهظة ،
وان الميل الى المساهلة يفضل اكثر الطوايا رقة ، فان مارية
ترازية ، قد أشارت الى قتل ابني أخى الأمير ، بشكل
أظهرته طبيعياً ، لازباً ، محتسباً ، فقالت : « بعدما سامح
خيانات ابني أخيه ، وتمردتهما المتعددة اضطر حفظاً
لسلامته ، وانقاذ قومه من مهاول الفوضى ، أن يعدمهما
أرواحهما . . . » ثم أبانت من الأمير ، وقد أفضه وخز
الضمير ، أعظم تائب امام الصمدى ، صائحاً ، باكياً ،

مصلياً ، موقداً نيرانه ، ليلاً ونهاراً ، لقري الجائع ؛ باعثاً
رواده في كل الوادي لاغاة الفقير .

وفي الحقيقة ، فالبشير لم يقتل ابني أخيه ، بل أتى
ما هو أدهى من القتل ؛ فبعد أن اقتلع لسانيهما ، وبخص
أعينهما ، ألغاهما في غياهب صرح جبيل ، حيث عاشا كرباً .
وبدلاً من التوبة ، فالأمر لم يفعل سوى استهلال سلسلة
المجازر^(١) .



(١) لم يكن مولى لبنان العظيم ظالماً ، كما يشتم من هذه ، بل ان الظروف
كانت تضطره الى الضرب على أيدي أعدائه ، كما يعلم كل من درس تاريخه ،
ووقف على أحوال بلادنا . فقد كان عادلاً ، وانما شديد السطوة على مناجزيه .
وفيه شيء من القسوة . م . س . س .



المنفى الاختياري

يمكن تفسير حماسة مارية ترازيه الفائقة ، عن كل
مايس لبنان ، حينما يعلم أن إقامتها في بيت الدين ، لم تكن
سوى الواحة القريضة في بيداء حياتها .

وكانت تحتمر في سريرتها ، في صمت وحرارة ، منذ
أعوام ، هوية نزوحها الى اوروة ، موطن الديانة المسيحية .
ولم تكن ثم تحذيرات اللادى استرستانهوب ، ولا معارضات
بشير الأبوية ، لتثنيها عن عزيمتها . وحدث في عصر يوم من
الايام ، أن ظهرت لها رؤيا ، وهي تقرأ في كتاب للقديس
الفونس دي ليجورى . Alphonse de Ligouri ، المطوّب .
حديثاً ، وخيل لها أن القديس يجبذ لها السفر . وعندها

قومت عزيمتها تقويماً باتاً . واتفق في ذلك الحين أن المدعو
جبرائيل خان ، أحد أكبر تجار ديار بكر ، وأحد أصدقاء والدها ،
كان عازماً على الاقلاع الى ديار اوروية ، ومعه بعض الطلبة
الاكليريكيين ، يقصدون مدرسة نشر الدعوة (البروپاغندا)
في رومة . وعليه فماریه ترازية ترافقه في رحلته . وبت في
كل شيء . وغادرت القصر الزاهر ، الذي لن تراه بعد
ذلك . واستأذنت الاميرة حسني جهان ، والامير الشيخ
الذي قال لها متأثراً جداً : « اذكرى ، وأنت تغادرين
لبنان ، انك تتركين خلفك ، صديقاً ومحامياً صدوقاً .

وإذا أراد المولى ، ولم يوات صحتك طقس الغرب ، فلا
ترددى قط ، في العودة الى بيت الدين ، الذي سيكون لك
دواماً بمثابة منزل والدك . . . » فبكت ماریه ترازية ، ومع
ذلك ركبت ظهر البحر ، من بيروت في أيلول عام ١٨٣٢ م
مزودة هدايا غريبة كثيرة الى الاب الأقدس ، كدنان
نخر معتقة ، وأربعة خرفان ، عظيمة الاليات ، مكنتزتها .
وما كادت تنزع من صرح الجبل ، حتى هاجتها المحن ،

والنكبات ، من جديد ، أهول جحيم من ذى قبل . ولم يهدىء
صخب وازباد البحر المتوسط قط . فالعواصف كانت تتسابق
من جميع أطراف الافق . فذاقت مارية ترازية الأمرين من
الهدام (دوار البحر) طول رحلتها ، التي دامت ثلاثة أشهر ،
حتى خيل لها أنها ستزهق روحها ، وقد سمعت في ذات يوم
صراخاً حاداً ، والانتفاض يكاد يتحكم على ظهر السفينة .
وقد نشأ هذا عن الهدايا المبعوثة للبابا . فقد مات خروف ،
وأمر الربان بالقائه في البحر . وتم ذلك في شيء من التذمر .
وما لبث أن نفق في الغد خروف آخر غريب الديار . وهذه
المرّة شق البحارة عصا الطاعة ، وكان لهم بضعة أسابيع
لم يتذوقوا فيها لحماً طريئاً . واستشاط الربان ، وسلت
الخناجر من أعمادها ، حتى كادت الدماء تسيل ، لأجل هذا
الخروف المتمرّغ على السطح ، رافعاً أضلافه المتوترة . وجرّت
مارية ترازية نفسها جرّاً ، مكفهرة خائرة القوى ، الى موضع
المأساة . ورجت البحارة أن يقذفوا الجثة الى البحر وينحروا

اخروفين الباقيين . وهذا ما كان بعد أن نضحوا الشواء
بالنبيذ القبرصي المرسل الى قداسة البابا .

ونزلت في ليفورنو Livourne وقد خدمت حميا الوصول ،
فشعرت بوعشاء السفر ، وأصابها وصب شديد ، سمرها جملة
شهور . ولم يكن في مقدره جبرائيل انتظارها . وقد دعي فجأة
بعد زمن قليل الى الشرق . وآتهم في فتنة : ثم التي عليه
القبض وأعدم . وبفراقه عاد الشقاء الى الاميرة المنكودة .
وكانت مازية ترازية ، قد اكتنزت في بيت الدين ، ثروة
عظيمة - من الرواتب والهدايا - وقد حولتها بأجمعها
سبائكاً من الذهب والفضة . فلو أبدلت هذه السبائك
نقداً . وأودعتها مصرفاً ، جلبت لها دخلاً حسناً . غير انها
لسلامة طويتها وعدم أهليتها ، وثقتها الجنونية بأمانة الغير ،
كانت فريسة باردة للصيارفة العدييي الامانة ، والمقايضة
المنخوبي الذمة . فقد صرخت : « ان حظي مروع ، واني
أشبه مسافر الكتاب المقدس إذ وقعت في مغارة لصوص . »
فإن أحد رجال الاعمال في ليفورنو ، وكان قد أوصى بها بنوع

خاص ، أعطائها جزءاً من عشرين من قيمة سبائك الفضة ،
ولما أبدت استغرابها الساذج لهذه الصفقة الذرية ، قصَّ
عليها هذا المختلس قصصاً بارعة ، عن مقايضات بخسة مجلبة
القنوط . ولم تدر الحقيقة إلا بعد عهد مديد .

ومكثت في رومة أربع سنوات ، حاولت اثناءها
دخول الاديار ، غير أن صحتها كانت تنحط تدريجياً ، مما
اضطرها الى العدول عن هذا القصد . وكانت تحفظ في
غرفها حقيبة كبيرة تحوى كل ثروتها . ففي ليلة ما لدى
رجوعها ، وجدت الصندوق مسروقاً ، وقد ضاعت كل
الحلى العائلية الثمينة : اللآلئ والاماس ، والنض ، والسبائك
الابريزية . ولم يكن للارزية ترازية الجرأة الكافية لحث رجال
الخفية الرومانيين ، الفاترى الهمة . ولم يقبض على السارق .
فقنطت وقد أفلست تماماً وودت العودة الى ربوع لبنان ،
ولكن جزعها من البحر كان فائقاً .

وهبطت باريس ربيع ١٨٣٧ م . فدخلت في كنف
رئيس أساقفتها ، الذى قدمها للملكة . ولم يغفل عنها أمير

الدروز قط . بل كان يبعث اليها عاماً بعد عام مبلغاً عظيماً ،
يكفل اعاشتها . لكن في سنة ١٨٤٠ ، انقض خبر تنازل
البشير كالصاعقة ، فبأرحتة للبنان والحجر على ممتلكاته ،
فنفية الى مالطه . وذعرت مارية ترازية ، حين علمت
بخراب مدن الساحل بمدافع الاسطول الانجليزي . ثم جلاء
ابراهيم باشا عن سورية ، فلاحتيال التركي ، فافلاس التاجر
المؤمن في بيروت لادارة البقية الباقية من أرزاقها . ولما
صاقت امامها جميع السبل ، ذاقت طعم البؤس ، وبؤس البلاد
الشمالية الاسود ، حيث ليس للبائس الشمس ، ولا القبعة
الزرقاء فوقه . وحاولت اعطاء بعض دروس في العريية ،
والكلدانية ، والفارسية . ولكن ليس ثمة عشاق لهذه
اللغات الشرقية ، وقد فاز الدوق دورليان ، في العثور على
طالب يدفع لها أجراً في الاسبوع ، مبلغ ستة فرنكات ^(١)
والموت اكرم من أن تبسط أميرة من آل الاسمر ، يد

(١) أي نحو ثلاثة وعشرين قرشا مصريا . فتأمل !!! م . س . ك .

الاستجداء . فباعت مارية ترازية كل ملابسها المطرزة ، التي
تذكرها بالماضي العذب . وامتنعت رويداً رويداً عن
المآكل ، تكثفي بتبليغ كعك سميد ؛ تسخنه على سراج
يضيء بالغاز ، إذ ليس لديها مال يتباع به فخماً .

وكان يوم من تلك الايام الشتوية المزمهرة ، إذ يخال
أن السماء ذاتها تندف مع الثلج . فكانت مارية ترازية
تصطك في البستها الرقيقة للغاية ، وهي لم تعود صبارة
الطقس . تتسكع في جة هذا الجمع الباريسي ، المسرع ،
العديم المبالاة . وكان لها ثلاثون ساعة ، لم تبليغ فيها شيئاً ،
وليس لديها درهم تشتري به قطعة خبز . والمنازل الشاهقة
تبدو لها متراقصة امامها ؛ وهي ترنح تكاد تسقط . وكان
عليها أن تدرك تلميذها . هنالك حيث تجد الدفء ، وتنال
أجرها المستحق الدفع ؛ فيكون سلامها . . . هيا تشجعي !
ولكن الطالب ، مدعو الى حفلة راقصة ، فلا درس هذه
الليلة . واعتذر لها أسفاً ! وودندت كلماته في اذني مارية ترازية ،
وها هي من جديد في الطريق كفي حشمة كاذبة ،

وعزة نفس باطلة ، فهذه مسألة حياة أو موت ، والكبرياء
ترف الاغنياء . . . غيبًا تقدمت لسيدة ادعت انها صديقتها
حتى الموت ، وغيبًا طرقت أبوابًا كثيرة . وكان الشبح
الصغير ، وقد ازداد نصبًا وازداد تقوسًا ، يزج في الطرقات
وقد سطعت الأنوار الاولى . أوه ! كم كانت محقة تلك
الانجائزية اليقظة ، التي فضلت الشرق المتوحش على أوروبا
الفائضة مدنية ! . . . وكانت تلوح امامها رؤيا الرفاهيات ،
وتذكر الولايم السالفة في قصور بغداد ، وتستعرض ما كل
البدو حول النيران - آه ، كم تود هي اليوم ، التلذذ بالتهام
لحم الابل ، الممقوت في سالف الزمن ! - وتشتم رائحة
قطائف بيت الدين المعطرة ! . . . « وحينما ولجت غرفتي
القيت بنفسي على الفراش ، ادعو الموت . فان آلام الجوع
ومخازي تصرفاتي ، العديمة الجدوى ، قد حثفت معين الحياة
في روحي وجسماني » وعند الصبح نخلت عن النخيرة
الأخيرة لديها ، وهي : علبة ذهبية تضم شظية من عود
الصليب الحقيقي

وقد التقت الاميرة في السفارة الانجليزية ، بباريس ،
بصفوة الوسط اللندني ؛ فانها وان كانت تموت بؤساً ، كانت
تعاشر أرقى الطبقات . وعرفتها الليدي غرانفيل ، والليدي
كولي ، والليدي بنتنك Bentinck والسر جورج دنيس ،
بالكونت دي مونستر Munster ورئيس الجمعية الملكية
الاسيوية Royal Asiatic Society فوعدها بتقديمها الى
الملكة فكتوريا . مؤكداً لها وجدان دروس اكثر جداً ، مما
في استطاعتها القاؤه ، وعاهد أيضاً على مفاوضة الحكومة
العثمانية . وطلب تعويض لها .

اخيراً ، ها هوذا فرديتهم لها . فاستبشرت ببصيص
من الامل وهبطت لندن في مايو سنة ١٨٤١ . وبينما
كانت فرحة تتناول الغذاء مع الكولونيل بويد ، أحد رفقاء
السفر ، أحضر غلام النزل جرائد الصبح . والتي الكولونيل
نظرة عليها ، فتغيرت ملامحه . فقد انتحر بالاس الكونت
دي مونستر . . . فيل كانت الاميرة تحمل معها النحاس
الكل من يرق لها ؟

ومن ثم لم تعش الا على افضال بعض ذوى الافئدة
الرحيمة ، كالستر هدى جورنى ، الفارس بنسن ، المسز
رتش ، أرملة قنصل انجلترا فى بغداد . ولم يتقدم اليها تاميد
واحد من التلاميذ التى وعدوا بهم الكونت دى مونستر .
ولكنها أكانت فى حالة تسمح لها بألقاء الدروس ، فهى
عرضة لرجفة عصبية حادة ، تفقدها الرشد . وكانت تلبث
أياماً بطولها مسمرة على فراشها . فعملت لتسليتها نفسها
بكتابة انباء بأسائها ، اهدتها الى الملكة الارملة . ونقلها الى
الانجليزية ، الطابع كولبرن ، ونشرها عام ١٨٤٤ م . وكانت
مارية ترازية تجر ذاتها فى بعض الايام ، حينما تلاشى الشمس
الانجليزية الضباب ، الى حديقة الحيوانات فى ريجنتس
پارك Regent's Park تسير فيها متثاقلة . أفليس مصيرها
يمثل مصير تلك العجاوات الاسيرة ؟ . . ووقفت أمام
جمل ، لا رحل عليه ولا زينة ، هزأة مجرداً . فرفعت صوتها
بالعربية متحسرة عليه ، وعند ذلك ، اختلج البهيم ، وأدار
صوبها عيناه الباسرتين المستسامتين ، ودنت منها ظيبتان ،

بكسائيهما المحملين ، عرفتا فيما سلف المفاوز الطليقة والشمس
الحارة ، حينما كانت الصحراء لهما مرتعاً رحيباً ، وأسندتا
رأسيهما الجميلتين الى الشبائك الحديدية ، ناظرتين اليها في
حزن ، كقوم من البشر لا وطن لهم . . .

.....

آية عظة تستمد من يوميات الأميرة الأسمر ؟ على
المرء ألا يقاوم أبداً حظه . فقد قدمت من ضفاف دجلة
وأرض المشرق الحارة ، لتفقد نفسها ، بين شعب لندن
القديم المبالاة .

وفي الوقت ذاته كانت ابنة أخت بت ، تسلم الروح ، في
دير خرب ، لأنها سلبت بسحر آسية ، وباحلام لا تتحقق .
ويا لله من ميتة ! ونازعت على أسمال حصيرة ، وقضت
كأحقر بنات قومها !

فكنا الاثنتين ، إغترنا بسراب البلاد النائية ، ولعلهما
لو لم تزهدا في كل شيء ، لتعيشا حياة أحلاميها ، لكانت

أخرتاها ، أقل إيلاماً . غير أن نفس النساء عويصة جداً ،
وأنه من المحتمل ، أن مارية ترازية ، في مخدعها البائس البارد ،
واللادى استر ستانهب ، في خذلانها العظيم ، لم تندما قط
على ماضيهما : ذلك الماضي الذى رجته

A. 1941





تعليق المعرب

الفن العربي وأصده



« لم تكن أورشليم ولا رومية
لترسلان بُنائهم الى سوريا ، بل كان
السوريون هم الذين يذهبون لتزييق
العواصم الاخرى » اندره جيجر
(André Geiger)

في النفس خاطرة جائشة ، ما كنا نود ابداءها في هذا
المقام ، لولا اشارة نشأت من السيدة مؤلفة هذا الكتاب ،
أثارتنا من عزلتنا وصموتنا ، وحملتنا على عدم الارجاء ،
فعزمتنا على اغتنام الفرصة السانحة ، والافصح عما يخلج به
الفؤاد ، وتهنئ به المشاعر ، لأننا لانود نشر شيء به أمر
يناجز أراؤنا ، دون أن نعلق عليه بخلاصة فكرنا .

وصفت السيدة مؤلفة هذا الكتاب ، أحد أروقة بيت
الدين ، أنه عربي الصنعة . ولا عجب ، فكل من شهد هذه
التزاويق الهندسية ، والتعاريج الجميلة ، والحبك البنائية ،

نعمها بالعربية ، جرياً وراء المتعارف. ولكن هذا خطأ محض لان ليس هنالك من « فن عربي » بالمعنى الصحيح . وانما هنالك فناً شرقياً، منتزعاً من عبقرية أبناء سوريا، أى ان الفن الذى نراه بادياً على العمارات القديمة ، فى الشرق الادنى ، وفى الاقطار الناطقة بالضاد، ليس الا فناً سورى الاصل، تكيف نوعاً ما ، فى كل قطر هاجر اليه ، طبقاً لثقافات عقلية أهله . ان العرب لم يعرفوا قط البناء ، وما وجد فى بلادهم زمن الجاهلية ، يعود بأسره الى النصارى ، وأحياناً الى اليهود ، وجميع هؤلاء كانوا ينزحون اليها اما للتجارة ، واما لاعانة اخوانهم فى الدين ، كما تدل الآثار الباقية الى اليوم . وقد قال ابن خلدون المؤرخ المغربى الشهير ، فى مقدمته ، الغنية عن التعريف :

« ان غاية الاحوال العادية كالمعمد فى الرحلة والتغلب . وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ، ومناف له . فالحجر مثلاً ، انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدور . فينقلونه من المباني ، ويخربونها عليه ، ويعدون لذلك . والخشب أيضاً انما حاجتهم

اليه ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ،
فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم، منافية
للبناء ، الذي هو أصل العمران»^(١) وعليه فكل الابنية التي
وجدت زمن الجاهلية ، هي من عمل من أطلق عليهم
العرب لقب « روم » جامعين في هذه الكلمة ، السوريين
والبيزنطيين على السواء دون تمييز ، كما تؤيد ذلك كتبهم .
فلننظر اذن كيف نشأ هذا الفن الجديد المعروف
« بالعربي » . ومن اين منبعه ؟

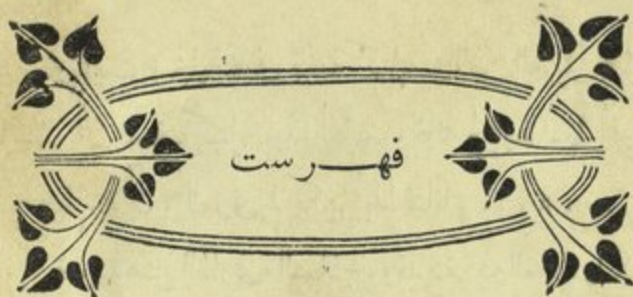
ان الفن البيزنطي ليس الا نتيجة جمع بين فنين بارعين :
الاغريقي والفارسي (والاخير مستوحى أيضاً من الاغريقي)
ولم يتم بهذا الاستيلاء الا جهابذة الفن السوريين ، فهم
الذين جمعوا هذين الفنين معاً ، وزادوا عليهما ، وزوقوهما ،
فقدموا الى العالم ما دعى بعدئذ بالفن البيزنطي . ولما دخل
العرب الشام ، واستقر لهم الامر ، هب السوريون أيضاً

(١) ويمثل هذا يصف « جوتيه » في كتابه « عصور المغرب المظلمة »
العربي بالمعجز عن الابتكار ، وانه طفلي يبيش على منتجات سواه في سوريا
ومصر والعراق وغيرها .

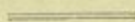
الى بناء مساجد لهم ، تحمل صبغة خاصة للفاتحين ، فألقوا
بين فهم القديم (البيزنطى) والفن الفارسى أيضاً ، وزادوا
وهوروا ما شاؤوا ، حتى استقام بين أيديهم ، فن جديد ،
عرف - خطأً - كأخيه الفن السابق - بالفن العربى . وما
لبث ان انتشر أثر الفتح الاسلامى . فى جميع الاقطار التى
امتد اليها ظل الاسلام . وتطور فيها . فى مصر اقتبس
شيئاً من الفن القبطى (كجامع طولون) وفى المغرب
والاندلس ، من الفن المغربى (كجامع طليطلة ، والحمراء)
وفى فارس من الفن الفارسى (كجامع اصبهان) وفى الهند
من الفن الهندى (كتاج محل) الخ . . . واصطبغ نوعاً ما
بصبغة القطر الذى يعيش فيه . ولكنه لم يزل فى صميمه فناً سورياً ،
يستقى من حداقة أبناء سورية . أشد مظهره خفوقاً .
ولكى لا نسرف فى هذه العجالة ، وتأيسداً لقولنا
السابق ، نقتصر على اقتباس قول سرفيه ، فى كتابه عن الاسلام :
« ان المهندسين السوريين ، فى جمعهم للفنيين الاغريق
والفارسي ، أدوا الى انشاء ما عرف بالفن البيزنطى ، فان

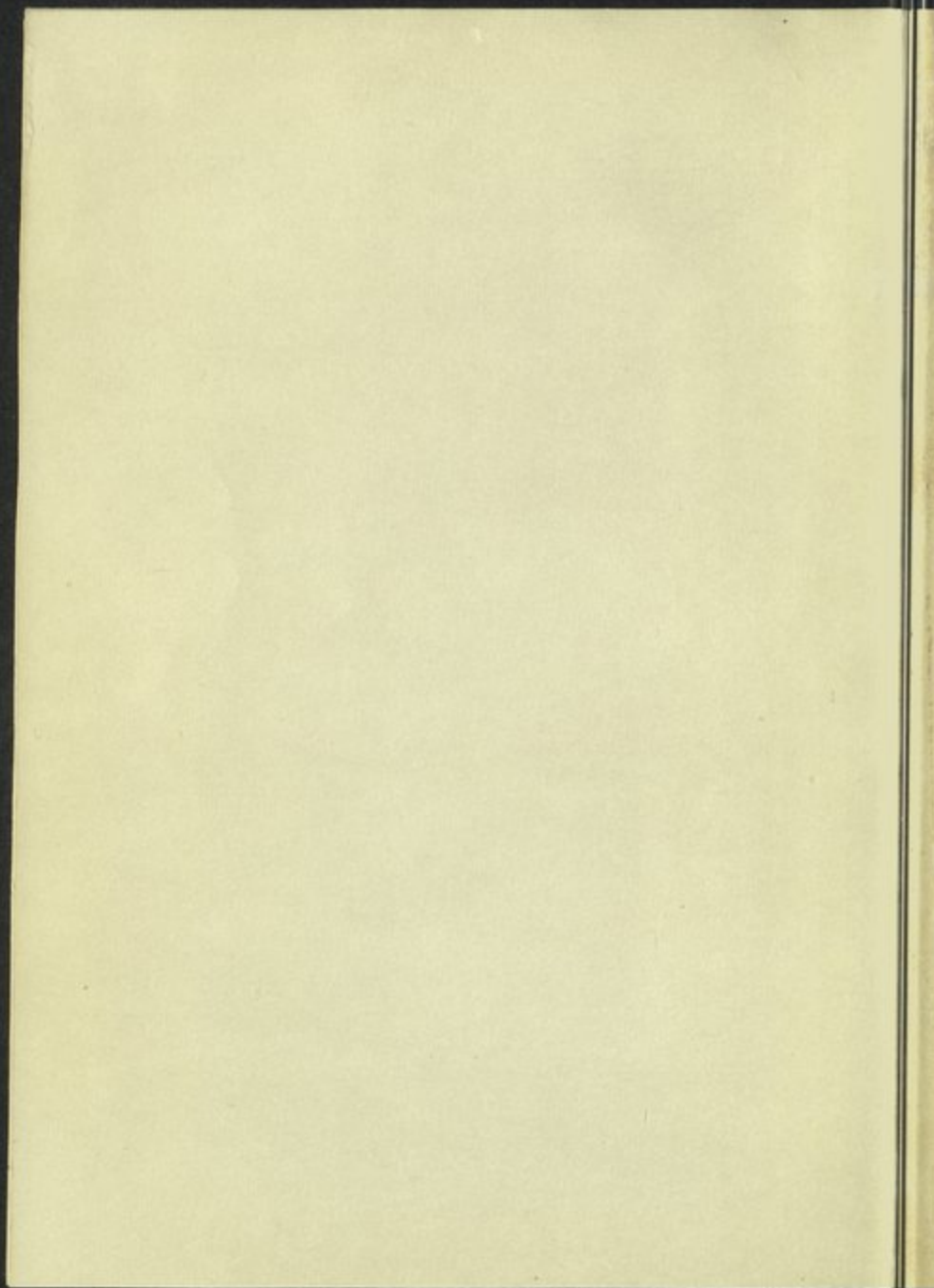
السوري أنتيمتوس الترابي ، Anthémios de Tralles ، هو الذي أنشأ رسوم كنيسة القديسة صوفيا (بين عام ٥٣٢ الى ٥٣٧) حيث يمكن للمرء مشاهدة جميع سمات الفن المنسوب الى العرب ، كالقباب ، منحرمات الحجارة ، الفسيفساء ، القاشاني الملون ، والوشى النباتي .

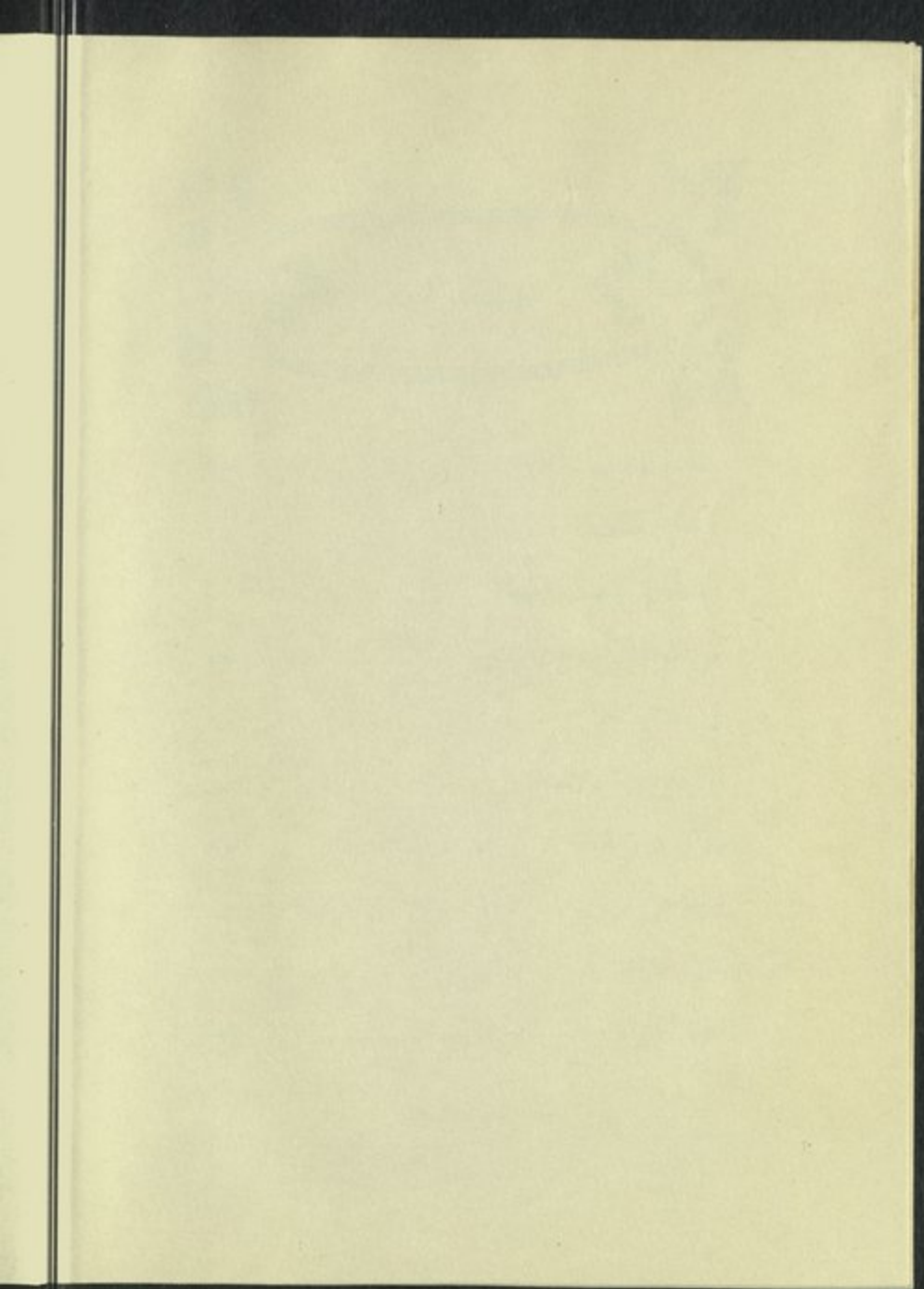
أما لامنس فيقول في تاريخه عن سوريا : « ان المهندس السوري ، قد اتى جانباً استعمال الملاط العديم الاناقة ، منضداً حجارتها المتقنة النحت على بعضها دون شيء ، ملقياً عبء ثبات عماراته ، على نواميس الموازنة وحدها . فأبدل آجر الرومان والبيزنطيين ، بالحجارة . وأقام الكنائس ذات القباب ، وغمر البلاد بالكتدرائيات البهية التي تثير بقاياها المهيبة تعجب الاثريين ، والتي يستوحى منها بناء الكنائس الرومانية وبذلك كان معلناً ، وموطئاً للفن العربي اللاحق ، الذي هو أيضاً يرجع الى الفنانين السوريين ، الذين أقاموا في القرن الاول للهجرة ، قصر « مُشَيَّ » المدهش ، بواجهته الهائلة ، وجوامع القدس ودمشق الفخمة »

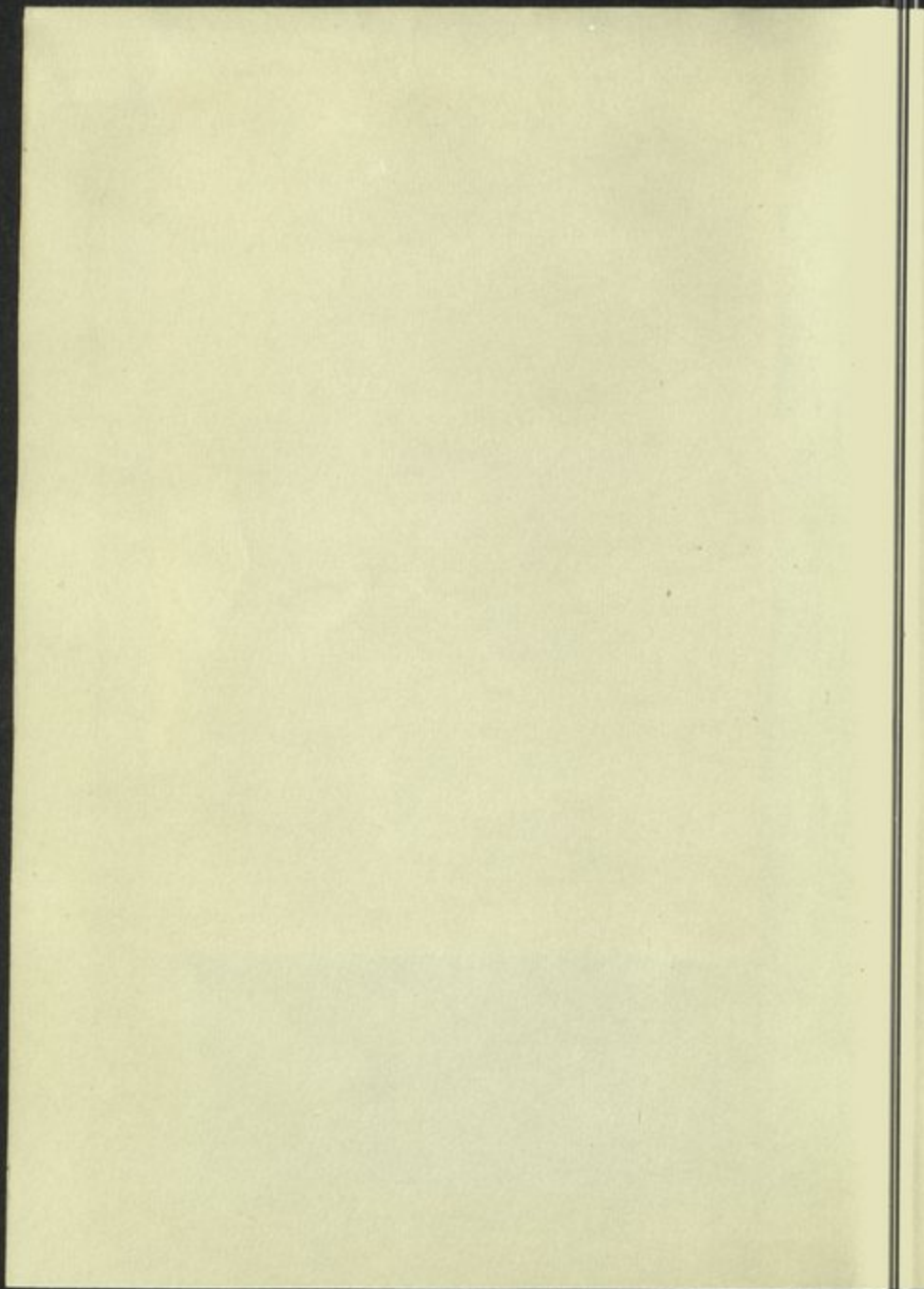


۳	مقدمة العرب
۱۰	فاتحة الكتاب
۳۳	المنشأ على ضفاف دجلة
۴۹	من الموصل الى بيت الدين
۵۵	في القصر الجبلى
۶۶	لقاء الایدى استرستانه
۷۳	عوائد درزیه
۷۸	وجها الأمير
۸۶	المنقى الاختيارى
۹۹	تعليق العرب







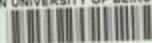


DATE DUE

~~1 FEB 1974~~



بورديو، بول هنري
اميرة بابلية لدى الدروز
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031946

843
B.7619.A.1

